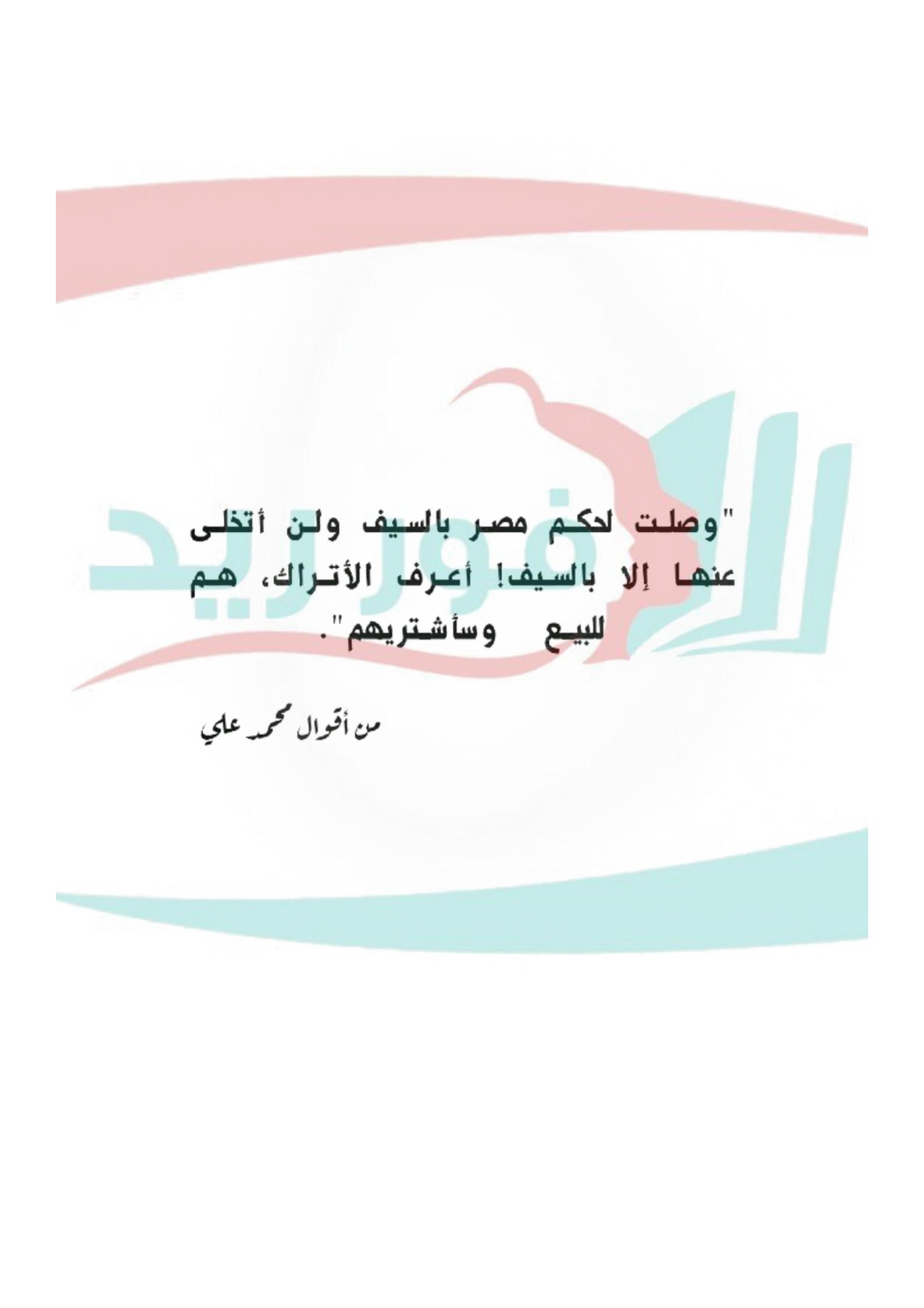


ابو مُحْسِنِ
خالد الجزار



"وصلت لحكم مصر بالسيف ولن أتخلى
عنها إلا بالسيف! أعرف الأتراك، هم
لليبع وسأشترى لهم".

من آقوال محمد علي

(1)

عاشرة الطرب

على الطبلية الخشبية المستديرة تحركت مخرطة الملوخية
برتابة بين يدي «فاطمة»؛ تسحق الأوراق الخضراء تحتها دون رحمة،
وتحولها إلى قطع صغيرة، تلتصق ببعضها في محاولة يائسة لمقاومة
السلاح الحاد المستدير لتلك الآلة، تجمعها بنصل شبه دائري،
تحكّه في القاعدة الخشبية، تشکّلها على هيئة مخروط صغير،
يعاود السلاح الحديدي عمله مرة أخرى فارماً الأوراق الخضراء، التي
تبدو من وجهة نظرها، وبناءً على الخبرة التي تحاول اكتسابها من
أمها، ما زالت تحتاج إلى تنعيم.

بدت «فاطمة» مستمتعة بعملها، وهي تردد بعض الأغاني
الشعبية، التي تتقنها جيداً، بعد أن استمعت إليها كثيراً في أفران
الحي، تحب الغناء؛ ويُطرب كل من يسمعها، تجيد الرقص والنقر

على الدُّف، تَوَبَّخُهَا أَمْهَا إِذَا مَا رَأَتُهَا تَرْقُصُ أَوْ تَنْفُرُ، وَلَوْ عَلَى غَطَاءِ وَعَائِهِمُ النَّحَاسِي؛ خَوْفًا أَنْ تَحْسُدُهَا إِحْدَى الْجَارَاتِ إِذَا مَا رَأَيْنَهَا، تَحْرُكَتِ الْمُخْرَطَةُ عَلَى الطَّبْلِيَّةِ مَعَ نَغْمَاتِ الدُّورِ، الَّتِي تَصْدُحُ بِهَا، ضَايِقَهَا الدُّخَانُ الْمُتَصَاعِدُ مِنَ الْكَانُونِ بِجَوارِهَا، خَانِقًا اللَّحنَ، الَّذِي تَرَدَّدَهُ، فِي حَلْقِهَا.

عَلَى الْأَرْضِ، جَلَستِ «نَفِيسَة»؛ أَمْهَا أَمَامَ بَعْضِ الْحِجَارَةِ؛ رَصَّتِهَا بِطَرِيقَةِ مَعْلُومَةٍ، وَفَوْقَهَا وَضَعَتْ وَعَاءً نَحَاسِيًّا مَتَوَاضِعًا، بِهِ أَرْنَبٌ لَا يَقْلُ تَوَاضِعًا عَنِ الْوَعَاءِ، وَاضْعَةً بَعْضَ الْقَشِّ الْيَابِسِ تَحْتَهُ؛ بَعْدَ أَنْ أَضْرَمَتِ النَّارَ فِيهِ، مَنْتَظِرَةً أَنْ يَنْضُجَ الْأَرْنَبُ الصَّغِيرُ؛ حَصَلَ عَلَيْهِ ابْنَهَا «أَحْمَد» مُقَابِلَ نَقْلِ بَعْضِ الزَّنَابِيلِ¹ مِنْ عَلَى الشَّوَّاغِرِ² وَوَضَعَهَا عَلَى الْحَمِيرِ، رَفَضَ مَالِكُ الْبَضَاعَةِ مِنْهُ أَجْرَهُ نَقْدًا مُقَابِلًا لِعَمْلِهِ هَذَا؛ رَبِّمَا أَقْدَمَ الرَّجُلُ عَلَى هَذَا لَأْنَهُ لَمْ يَقْمِ بِالْعَمَلِ كَمَا يَجِبُ، أَوْ رَبِّمَا لِأَسْبَابٍ أُخْرَى، لَمْ يَفْصُحْ عَنْهَا التَّاجِرُ؛ وَأَعْطَاهُ فِي الْمُقَابِلِ أَرْتَيْنِ؛ هَرَبَ مِنْهُ أَكْبِرُهُمَا فِي الْمِينَاءِ، حَاوَلَ الْلَّاحَقَ بِهِ؛ فَفَشَلَ فِي إِعَادَتِهِ وَرَجَعَ بِهِذَا الَّذِي تَسْعَى الْأُمُّ لِطَهِيهِ.

اشْتَعَلَ الْحَطَبُ، وَصَفَا هَوَاءُ الْبَيْتِ مِنَ الدُّخَانِ؛ الَّذِي زَادَ السَّنَاجَ عَلَى الْعَروقِ الْخَشْبِيَّةِ الْمُتَهَدِّلَةِ، الَّتِي تَحْمِلُ سَقْفَ الْبَيْتِ؛ فَزَادَتِهِ سُوَادًا، مَا حَدَثَ وَمَا يَحْدُثُ أَحْيَانًا لَا يَخْلُو مِنَ الْفَائِدَةِ، فَالْذَّبَابُ هَرَبَ مِنَ الْبَيْتِ الصَّغِيرِ، الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ «فَاطِمَة» وَأَمْهَا وَأَخْوَهَا؛ جَالِبُ الْأَرْنَبِ، وَالْأَبُ الَّذِي قَدْ يَحْضُرُ الْيَوْمَ وَيُشارِكُهُمْ طَعَامَ الْغَذَاءِ.

1 - أَكْبَاسٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْخَيْشِ تَوَضَعُ فِيهَا الْبَضَائِعَ.

2 - مَا يَوْضَعُ عَلَى ظَهَرِ الْجَمَالِ لِتَحْمِيلِ الْبَضَائِعَ.

عادت لتكميل الدور الذي كانت تغنيه؛ والذي منعها الدخان من إكماله. اقتربت الأم منها وجلست بجوارها تستمتع بغنائهما «العفوي يا سيد الملاح» الذي تطرب له، وهي تتمايل مع نغماته، توقفت عاشقة الطرب عن الغناء، وعن خرت الملوخية بعد أن أطمأنّت أنها وصلت للنعومة المطلوبة، والتي دائمًا ما تصرّ عليها الأم في يومٍ ممیزٍ مثل هذا، على الأقل بالنسبة لها، فـ فاطمة بنت الرابعة عشر ليست بصغيرة الآن، من المنتظر أن يتقدم لها صاحب نصيبيها في أي وقتٍ، وعليها الاستعداد لذلك، هي تجيد الطهي، وتنظيف المنزل وترتيبه، كما تجيد الغناء والرقص، ستكون هدية ربانية لزوج المستقبل؛ يسعد بها ويهنا بلا شك.

في انتظار نضج الأرنب ليكون الحساء جاهزًا لعمل الملوخية؛ التقطت الأم رأس ثوم، وأخذت تقشر بعض فصوصه، وأسرعت تدقها في الهاون الحجري، بعد أن أضافت القليل من الملح، والكثير من الكزبرة الجافة، لم تضيع ابنتها الوقت؛ انشغلت في تنظيف غرفة نوم أمها، والتي شاركتها النوم فيها، طالما الأب غائبًا في عمله، أخرجت المرتبة المحسوسة بالقش الناعم إلى سطح البيت؛ مظهرة إياها بشمس مارس، كما تعودوا على ذلك بعد أوامر مشددة من الفرنسيين الذين تدخلوا في كل تفاصيل حياتهم، فشمس هذا الشهر قد تختفي في آية لحظة.

استلقت فاطمة على المرتبة لتنعم بدبء الشمس هي الأخرى، فانحناء ظهرها أثناء خرت الملوخية، وحمل تلك المرتبة الثقيلة جعل التعب يداهم جسدها الغض، فراحت في غفوة لم تطل، أيقظتها أصوات المدافع؛ فهربت هابطةً عن سطح المنزل مرعوبة؛ فـ في السنوات القليلة الماضية، وفي وجود المحتلين دائمًا ما كان صوت القذائف نذير شؤم.

أسرعت فاطمة تبحث عن أمها في حجزتي البيت؛ لتحتمي في حضنها كما اعتادت كلما ضجّت القاهرة بطلقات القنبر، والرصاصات المندفعه من بنادق الفرنسيين بطريقه عشوائية، فلا تفسير لذلك إلا أنَّ آلات الموت قررت أن تحصد عدداً كبيراً من الأقارب والجيران والمعارف، وقد كان خالها واحداً من الذين تمكنت رسل الموت من غرس رصاصاتها في صدره؛ بعد أن فشل في الاختباء خلف إحدى المتاريس، التي بناوها ليحتموا بها في ثوراتهم ضد المستعمرین الكفرة.

بكل ما أُوتيت من هليع صرخت تنادي أمها؛ ولكن ما من مجيب، تضاعف خوفها مع أصوات المفرقعات التي كادت تصمم أذنيها، اختبأت خلف صندوق خشبي قديم يستخدمونه في وضع ملابسهم، لا مخبأ لها إلا حضن أمها، التي احتفت، ولا تعلم ما حدث لها، أو ما سيحدث لها هي أيضًا.

كاد الهلع يعصف بالصغيرة، فوق الخطوات خارج الغرفة قد يكون لبعض المماليك أو الأتراك أو لميلٍ أخرى من التي كثرت في مصر بعد انسحاب الفرنسيين منها، سيأخذونها سبيّة ويبيعونها في سوق الجواري، فجأة عادت البسمة إلى وجهها، خرجت زفراً قوية من صدرها؛ اطمأنّت بعد سماع صوت أمها وأخيها، ارتعشت أوصالها بعد أن كادت تتجسد، وعادت للحياة مرة أخرى بعد أن غرس الضعف والخوف مخالبها في جسدها النضر وأكملت غفوتها خلف الصندوق.

أعادت الأم وضع الوعاء النحاسي على الكانون وأشعلته مرة أخرى، دخل أحمد حجرة نومه التي يتشاركةها مع أخيه عندما يتواجد أبوه؛ غرفة ضيقة قليلة المتعان، صندوق خشبي متوسط في أحد أركانها لُف بعناية بقطعة من قماش الكتان المهترئ؛ يبدو أنَّ له أهمية خاصة عند صاحب الغرفة، حصيرتان صغيرتان؛ إحداهما مطوية فوق الصندوق لا تفرش إلا في وجود الأب أو وجود زائر، وهو ما يحدث نادراً، وسادتان من ليف التخيل، واحدة على طرف الحصيرة المفروشة على الأرض، والأخرى فوق الحصيرة على الصندوق، وفي الركن المقابل للصندوق بيرق معلق على خشبة رشيقه ملفوف حولها علم أحمر كالح لون؛ مزينة أطرافه بشريط أصفر، التقاطه وخرج مسرعاً من غرفته.

مَرْأَةً أَمَّهُ التِي أَخْرَجَتِ الْأَرْنَبَ بَعْدَ أَنْ تَأْكَدَتْ مِنْ اكْتِمَالِ
نَضْجِهِ فِي غَطَاءِ الْوَعَاءِ، وَوَضَعَتِ الْمَلْوَخِيَّةَ فِي الْحَسَاءِ وَقَلْبِهَا
جِيدًا، تَذْوَقَهَا بِطَرْفِ الْمَلْعُوقَةِ، شَعَرَتْ بِأَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَضِيفَ الْقَلِيلِ
مِنَ الْمَلْحِ، نَادَتْ عَلَى فَاطِمَةِ لِتَعْطِيهَا قَرْطَاسَ الْمَلْحِ الْمَوْضُوعِ عَلَى
رَفِّ خَشْبِيٍّ مَعْلَقٌ بِحَبَالٍ فِي أَحَدِ عَرَوَقِ الْغَرْفَةِ، لَمْ تَجْبِهَا! أَعَادَتْ
النَّدَاءَ؛ مَا مِنْ مُجِيبٍ، نَادَتْ عَلَى ابْنَهَا وَهُوَ فِي عَجْلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ،
تَوَقَّفَ وَقَبْلَ أَنْ يَنْظُرْ نَحْوَهَا سَأْلَتْهُ:

- أَلَمْ تَرَ أَخْتَكَ؟

- لَا.

- أَلَيْسَتِ فِي غَرْفَتِكَ؟

- لَمْ أَرَهَا مِنْذَ أَنْ دَخَلْتُ مَعِيَ الْمَنْزَلَ، لَقَدْ تَأْخَرْتُ وَعَلَيَّ الْإِسْرَاعُ.

- أَلَنْ تَتَنَاهُو عَنِ الْغَدَاءِ؟

- لَسْتُ جَائِعًا؛ فَطَرَتْ تَوْا.

تَرَكَهَا وَانْدَفَعَ مُغَادِرًا، وَالْحَمَاسَةُ كَادَتْ أَنْ تَنْفَجِرَ مِنْ وَجْهِهِ
الْأَسْمَرِ النَّحِيلِ، ابْتَسَمَتْ أَقْهَهُ لَهُ، وَقَامَتْ تَبْحَثُ عَنِ ابْنَتِهَا، وَجَدَتْهَا
مَكَوَّمَةَ فِي حَالَةِ إِعْيَاءٍ شَدِيدٍ خَلْفَ صَنْدُوقِ الْمَلَابِسِ فِي غُرْفَتِهِمَا،
الْمَسْكِينَةُ لَمْ تُسْتَطِعْ أَنْ تَفْرَقَ بَيْنَ طَلَقَاتِ الْاحْتِفالِ، وَبَيْنَ المَدَافِعِ
الْفَرْنَسِيَّةِ التِي دَكَّتِ الْقَاهِرَةَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَرَغْمَ رَحِيلِهِمْ عَنِ الْبَلَادِ

منذ أربعة أعوام، إلا أن الصغيرة لم تستطع أن تنسى أنها ذات مرة رأت الموت تحت أنقاض منزلهم عندما وجّهوا مدافعهم باتجاه القاهرة من فوق المقطم، ولولا تدخل العناية الإلهية؛ وتعامد عرقين من الخشب فوقها، وكانت في عداد الموتى الآن، تلك الفتاة **حضراء** الساق تتعب من أي مجهد زائد، لامت نفسها؛ لم يكن عليها أن تأمرها بحمل المرتبة والصعود بها إلى السطح، ليتها لم تطلب منها ذلك وقامت هي به، حاولت إيقاظها، لم تستجب الصغيرة لتوسلاتها، أطلقت الأم صرخة مدوية ظنّاً بأنّ ابنتهما تحضر، لم يسمعها أحد في ضجيج الاحتفال بتولّي البشا الجديد ولاية مصر.



(2)

الاحتفال

حمل أحمد بيرقه كفارس عائد مظفراً من حروب طويلة، أسرع في طريقه نحو الأذبكية، ازدحمت الطرق - المسقوفة بالحصار - بالباعة، الذين يفترشون جوانب السكك الضيقة بسلام الخضرولات والفاكهه، الجميع في حالة من النشوة والتراضي، البائعون يسعون لبيع بضائعهم ولو دون مكسب؛ لعلهم يتمكنون من حضور احتفال الليلة؛ النساء ببراقعهن السوداء، التي تغطي وجوههن، ولا تظهر إلا أعينهن الحوراء الواسعة والتي حباها الله بجاذبية خرافية، لم يكتفين بذلك؛ بل زدنها جمالاً وفتنة بخط من الكحل العريض، الذي أحاط بالأهداب ليحول تلك العيون لسلاح طائشٍ يُردي كل من حاول النظر إليه، أسرعن في خطاهن بأجسامهن الممشوقة، ترتج أرداهن في جميع الاتجاهات، في إغراء مثير، مع تلك التجاعيد العشوائية حولهن؛ بعد تضييق الخناق عليهما بشد الملاءات التي

تلتف حول خصورهن، عليهن أن ينتهي من أعمالهن المنزليّة علّهن يكسن رضا رجالهن، ويصطحبوهن إلى الاحتفال المنتظر.

تجمّعُ الخلق من كُلّ حدبٍ وصوبٍ، وسط هذا الزخم رفع الرجال أعلامهم الملوّنة، ووقف أحمد وسطهم ببيرقه، تحرّكوا ككتلة واحدة يلوحون بأعلامهم، تسبّقهم دقات طبولٍ من كُلّ نوع، ساروا في شوارع أمّ الدنيا الرئيسة فرحيين؛ معلنين تأييدهم لمشايخهم وزعمائهم حتى وصلوا وجهتهم.

ازدحمت الأزبكيّة بكلّ الفئات؛ من الرجال والنساء والعجائز والأطفال، ضجّ المكان بأصوات الغانيّات، ارتفعت أصوات المغنيّين والمنشدين بالآهازيج، انتشرت الحواة في الأرجاء، تحلق حولهم البعض مندهشين من أعمالهم السحرية، سلاسل حديديّة طويّة رُبطت في أعناق القرود، التي تتقافز في خفة مع ضربات خفيفة على الدُّف، وتؤدي حركات مضحكّة؛ نوم العازب وعجين الفلاحة، الكلّ يعبر عن سعادته بطريقته الخاصة، البائعون ينادون على بضائعهم بصوت جهوريّ، بائعوا البوظة جلسوا بقرعات فخارية متجاورين، وتواجد عليهم راغبو الجذل بتغييب عقولهم، على جانب آخر.. جلس بعض الرجال يدخنون الحشيش وقد غابوا عن وعيهم، جلسوا يتأمّلون الدخان الأزرق المتتصاعد من الجوزة التي أمامهم، والبلاهة تملأ عيونهم المفتوحة، على قرع الطبول هرّت بعض الراقصات أجسادهن في ملابسهن اللامعة الضيقّة وقد أبرزت مفاتنهن، وهناك

ليس بعيد عنهن مجموعة أخرى من النساء تجتمعن حول بعضهن باحثات عن راغبي المتعة، المحظوظة منها حصلت بالفعل على مبتغاها، وأخذت تبحث عن الطريقة المثلث لتحقيق أكبر مكسب منه، طلاب معتمدين يبحثن في الخيام عن شيوخهم، اليوم رؤساؤهم أثبتوا لسلطان إسطنبول أنهم هم من يتحكمون في مصير بلادهم وليس بابه العالي أو صدره الأعظم.

شَقَّ طريقه بصعوبة وسط الزحام، ورغم اختلاف الجمع وتنوعه إلا أن الفخر، والفرحة - بما حققه لهم شيوخ الأزهر - ظاهرة على قسماتهم، وطاغية على حديثهم، فهذا يقسم بأغلظ الأيمان وهو يخرج الدخان الأزرق من أنفه في خطفين متوازيين بأن هناك صلة قرابة تجمعه بالشيخ «الشرقاوي»، وأخر يؤكد صلة النسب التي تجمعه بالسيد «عمر مكرم» بعد أن أفرغ قرعة البوطة في جوفه، وظهر أثر السُّكُر على عينيه، بجواره تربعت امرأة مفترشة الأرض وأمامها مُوقد الجمر تشوّي كيزان الذرة، تعلن تخوفها من «محمد بك الألفي»؛ الذي لا بد أن يعود وينتقم من الجميع، ويستولي على العرش الذي عاش يحلم به.. أكد على كلامها بائع الترمس، بعد أن ناول زبونة أمامه قرطاً ساساً كنوع من أنواع المَرْءَة الرخيصة قائلاً:

- إن «الألفي بك» لن يترك الحكم بهذه السهولة، خاصةً بعد ما بذله من جهد في مقاومة الفنساويين.

وصل أخيراً عند مجموعة من الطلاب الأزهريين، الذين جلسوا بعيداً عن أماكن اللهو فوق ربوة صخرية صغيرة، جلس بالقرب منهم يستمع لمناقشهم الهدائى عن توقعاتهم لما هو آت، أكثر المتفائلين بينهم شاب في أواخر عقده الثاني، كان واضحاً من لهجته أنه من أهل «مراكش»، قال بأنّ الأمور قد استقرت في ملك مصر المحروسة لمحمد علي باشا.. اعترض على رأي المراكشي طالب صعيدي يناديه في العمر، قال بأنّ المماليك، وعلى رأسهم محمد بك الألفي المستقر في الصعيد ليس بعيد عن الأحداث، وأنه ما زال يملك من القوة ما يستطيع بها مقاومة الباشا كما قاوم الفنساويين من قبل، انبرى شاب آخر تبيّن لأحمد من لهجته وملامحه؛ بأنه من بلاد شرق آسيا، خرجت من فمه الكلمات ممطولة، محاولاً أن يوضحها وهو يضغط على بعض الحروف، أنّ ما يقلقه ليس العثمانيون، ولا الأمراء المصريون ولا «محمد علي باشا» نفسه، فشيوخهم، الذين أتوا به، قادرون الآن على خلعه وتعيين غيره، وأنّ ما يؤرقه حقاً هم أهل الفرنجة الكفار؛ لأنّهم لم ولن يتوقفوا عن محاولاتهم للسيطرة على مصر من بعد أن دفعوا دية أسير دار ابن لقمان في المنصورة؛ «لويس التاسع» وأنّهم يحلمون بامتلاكها، فمصر بالنسبة لهم هي درة التاج التي يسعون جميعاً لاقتنائها بأي ثمن، ومهما كانت الخسائر التي قد يتكبّدونها في سبيل ذلك. لم يتوقف النقاش بينهم، فنهضوا وأكملوه في طريق عودتهم وتركوه يجلس وحيداً بعيداً عن الضجيج والغوغاء.

تذكر أحمد ذلك العالم الفرنسي مسيو «فانسان»، الذي عمل عنده، وقتما سمع اسم أسير المنصورة، حيث يحلوله أن يسمى ملكهم البطل لويس القدس، عمل خادماً، وطبخاً لأحد علماء «بونابرت» لمدة عامين، تعلم الفرنسية وأجادها، تدرب وتعلم الطهي الغربي، أجاده وتفوق فيه؛ حتى راق طعامه سيده، وأشار به، وافتخر به أمام زملائه، وكثيراً ما دعاهم لمشاركته طعامه، اعتبره البوابة الرسمية للمجتمع المصري؛ من خلاله تعرف على الكثير من عادات وتقالييد ومعتقدات أهل مصر، لم يبخل عليه أبداً مقابل سنتين من العمل معه، تمكّن من إعادة بناء البيت الذي تقيم فيه عائلته الآن، وتعلم لغة قد يستفيد منها يوماً، وطريقاً غريبة في الطبخ يستخدم في إعدادها الخمور أحياناً، لم ترق أسرته عندما أعدّها لهم ذات يومٍ، بجانب صندوق مملوء بالأدوات العلمية تركها العالم له كذكرى، احتفظ به في إحدى زوايا الغرفة، وأولاًه عنابة فائقة للحفظ عليه.

الغريب أنه لم يرغب ولو لمرة أن يفتح الصندوق، أو أن يحاول أن يستفيد مما فيه، لمعت الفكرة في عقله هذه الليلة، عليه أن يفتح الصندوق، ويرى ما فيه، ويحاول أن يستخدمه كما اعتاد مسيو فانسان الفرنسي أن يفعل.

ترك الاحتفال تحت حماية العسكر، لم يتغير شيء فيهم؛ ما زالوا غلاظاً قساً كعادتهم، خاصةً عندما فضوا شجاراً بين رجليين،

ذهبت البوطة بعقلهما، كادت قوات الأرناؤود أن تفتك بهما، وبكلِّ
المحيطين من حولهما، لولا هروب الرجلين؛ لتحول هذا الحفل
الشعبي إلى مأساة دامية، لا يعلم على من ستحلُّ، لربما تقع الكارثة
على أهل مصر أو على عاتق الباشا الجديد، لكنَّ الله سَلَّمَ.

أكثر ما أبهَرَ لُبْتَ كلَّ الموجودين وسيطر عليه؛ هو الألعاب
النارية بألوانها الزاهية، التي أضاءت سماء القاهرة، وما أن انتهوا
من إطلاقها حتى عزمَ أحمد أن يعود إلى منزله؛ ليرى ما تركه
صديقَه الفرنساوي، قبل أن يعود إلى موطنَه.

من شارع «ظهر الجمال»، دخل الحرارة الغارقة في الظلام،
ومنها دلف إلى العطفة، التي في وسطها بيته الصغير، قرع الباب،
أسرعت فاطمة نحو الباب وهي تسأَل في خوفٍ:
- «من الطارق؟».

تعجبَ كونها متيقّظة حتى هذا الوقت، طمأنها بأنَّه هو من في
الخارج، فتحت له الباب، تقدَّم يسبقه بيرقه، دخل غرفته وتبعته
أخته، نظر إليها متسائلاً عن سر وجودها معه هنا، فابتسمت وهي
تقول :

- عاد أبوك والتهم الأرنب وحده، واحتلَّ مكاني إلى جانب أمي.

ضحك أحمد وهو يجلسها إلى جواره، تبسمت وهي تسأله عن يومه ، فأجابها عن تفاصيل ما سمع وما رأى وعن الأقزام، الذين أضحكوه كثيراً بحركاتهم الغريبة، وعن الشنك والحراقات والنقوط، حديثها عن سماء القاهرة، التي أنارتها الألعاب النارية، بألوانها الزرقاء والحمراء والصفراء والخضراء، ولم يغفل أن يحدثها عن الشِّجار، الذي دار بين مسطولين، وكيف تعامل الأرناؤود معهما، وكيف أحزنه سوء معاملتهم وقسوتهم.

كادت أن تقع فاطمة في بئر النوم؛ حينها تذكرت أن تخبره بأنَّ عليه الاستعداد غدًا ليستقبل خالتهم «لا لا زار»³ وابنته في بولاق، وستصلان وقت الظُّهر في موعدهما، كما يحدث كل عام؛ استعدادًا للرحيل لمولد البدوي في «طاندتا» (طنطا)، ذُكرته بمهمته، وذهبت في نوم عميق.

طار عقله من الفرحة؛ اقترب موعد رؤيته لعائشة بنت خالته، كم يعشق السيد البدوي، وسيرته وحضرته ومولده، وكيف لا يعشقه وهو من يجمع بينه وبين عائشة، حلم عمره، وأمنيته الوحيدة في هذه الدنيا؟! تلك الفتاة، التي تقارب أخته في العمر، يلتقي بها مرات معدودة سنوياً، أطولها هي مولد البدوي، أغمض عينيه وهو يصرخ بداخله: «شيء لله يا بدوي».

3- اسم أنشى بمعنى حوض الزنبق

(3)

يد غليظة

عَجَّ مِيناء بولاق بالحركة، تجار، حَمَالون، حَمَارين، سماسرة، ولا
مانع من بعض النشاليين، ورغم انتشار الجنود في أرجاء المرفأ؛ لم
يكن عندهم نية القبض على هؤلاء اللصوص؛ فالشركاء دائمًا ما
يعاونون ولا يطارد بعضهم بعضاً، على البوابات وقف رجال الشرطة
يفتشون وينبشون الأحمال مهما صارت، ضَجَّ التجار وهم يرون
بضائعهم تُهدر على الأرض، رغم أنَّهم يدفعون ما عليها من مكوس
وعشور.

تمكَّن الضيق من الحمارين والحماليين؛ فلو استمر الوضع على
ما هو عليه؛ سيمِرُّ اليوم بلا عمل يذكر؛ كادت الشمس تتوسط
كب السماء، والجنود يضيقون الخناق أكثر فأكثر، اقترب أحمد
من رصيف الميناء، ووقف ينتظر، جو اليوم غريب ومتقلب، مثله

مثل مزاج حراس الأمن في الميناء، وكأنّ فصول السنة تجمّعت في
بعض ساعات، بعد أن أحرقت الشمس عظامه، اختفت فجأة خلف
سحابات من الرمال الناعمة، التي تحجب الرؤية.

رجَّ كتفه الأيمن يدُ غليظةً، كادت أن تقلعها، التفت خلفه؛ وجد
جندياً ينظر نحوه شرزاً، سحبه بعنف نحوه، حتى كاد أن يقلعه من
على الأرض، خرس من هول المفاجأة، ولم ينبس بيانت شفة، نكزه
الجندي في صدره بهراوة في يده، وهو يسأله بصوتٍ حادٍ:

- ماذا تفعل عندك؟

الألم الحاد، الذي يشعر به الآن، يدعوه للصراخ، نظرات الجندي
النارية دفعته أن يخرج الكلمات متقطعة حارة، وكأنّها عرائض
شكوى لرب السماء..

- أنتظر خالي.

- من أيّ جهة قادمة؟

- من الجيزة يا سيدي.

- من أيّ داهية في الجيزة؟

وصلت إلى مسامع الجندي صوت صفاراة مدوية قبل أن يستمع
لإجابة على سؤاله؛ التفت حوله ثم نحو البوابة الرئيسة للميناء،

حيث وقف زملاؤه في صفوف منتظمة، هرول في اتجاههم ماداً عنقه محاولاً اكتشاف الأمر، توقف فجأة وعذل هندامه، وضع سيفه بجانبه وركض، في نهاية الصف وقف معهم في ثبات وصمت.

لم يصدق أحمد نفسه بأئته نجا من يد هذا الغاشم، دون أن يصاب بجرح غائر، أو يكسر له سناً أو أكثر، أو أن يحتاج لتجبير ضلوعه، أو يدفع له براطيل^(٤)، ومن أين له بالمال؟! وهو لا يجد عملاً، جلس على أرضية الميناء محاولاً أن يستعيد أنفاسه، حمد الله بأن خالته لم تصل وقتماً وقع في قبضة ذلك الظالم، لو رأته عائشة وهو في موقف كهذا؛ قد تُغير رأيّها فيه.

نظر خلفه في حذر، في صفين منتظمين تراص الجنود على جانبي البوابة الرئيسة للميناء، في انتظار مرور والي الشرطة، وقفوا في خلاء؛ غابة من الأشجار الضخمة، لا يعلم أحد شيئاً عن خواياها، مَرَّ من بينهم منفوحًا كديكٍ حبشي، نفحوا صدورهم، ورفعوا رؤوسهم؛ ضباع في انتظار أوامر قائد قطيعهم، تلقت الوالي حوله، وأشار في اتجاهات مختلفة، وهو يتحدث وعلامات الصرامة واضحة على وجهه، تقدم أكبرهم رتبة، وأشار في اتجاه اليمين من الميناء، تقدم زعيمهم حيث أشار الجندي، تبعه دون تردد، تحركوا

خلف قائدتهم، توقف عن السير، أو ما للبقية بأن يعودوا لعملهم،
وطلب من جنديين فقط أن يلحقا به.

تحامل أحمد على نفسه، ووقف على الفور، فوجّهه والي الشرطة لا ينذر بأي خير، سار بشق الأنفس، وتحرك رغم الألم الذي يعانيه؛ جلس خلف حائط خشبي قريب، في خفية أخذ يراقب الموقف، دون أن يراه أحد، عاد الجنود إلى ممارسة مهامهم المعتادة؛ تحصيل البراطيل من الخلق، ومن يرفض دفع المطلوب؛ ثبّث بضاعته، وتلف بطرق عدّة على حسب نوعها، في وسط هذا اللحظ، لاحظ أنَّ أحدهم لا يقترب أفعالهم، وقف أمام بوابة جانبية بطوله الفارع وسلامه اللامع، تعجب الجالس خلف الحائط عندما عرض عليه تاجر قصير بعض الدرّاهم؛ رفضها بهزّة خفيفة من رأسه، بعدها قلب شفته السفلّي في امتعاض، فتشتتْلِيسه⁵ بحرص دون أن يتلف ما فيه، وأعاده له، وسمح له بالمرور، بعد أن رماه بنظرة لم يتمكن المختبئ خلف الحائط من تفسيرها؛ أهي نظرة شفقة أم احتقار؟!

توقف عن متابعة الجندي، وانتبه للجلبة القادمة من رصيف الميناء، ضيق بين عينيه، حتى يشاهد بدقة ما يراه، نادي الحمالون على بعضهم، مركب من الجيزة محمّلة بالبضائع وصلت للتو، وقف خلف الحائط في حذر؛ أطلَّ برأسه ناظرًا خائفًا من أن يراه أحد

5- التلليس: كيس من الخيش.

الضباع؛ فيحتلّ به مرة أخرى، كما حدث منذ قليل، مَرَّ الوقت
وَفَرَغَ الحَمَالُونَ السفينة، دون أن يظهر لخالتة ومن معها أيٌّ أَثْرٍ، قد
يكون منعهم مانع من المجيء اليوم، وسيحضرون غدًّا، تجراً وخرج
من مكمنه متحرّزاً، فلا خوف من أن يراه أيٌّ شرطي مغادراً الآن،
وضع شاله الصوفي القديم على رأسه، واتجه نحو البوابة الجانبية
الصغيرة.

اقترب من البوابة خافضاً رأسه، توقف فجأة عندما سمع صراغ
رجل يملأ المكان، وفرقعات الفرقة تدوّي في أذنه؛ تسمر في
مطروحه، خرج قائد الضباع، والجندى الكبير، والجنديان الآخران
يدفعان أمامهم رجلاً، يحمل تليساً على ظهره، أفرغوا محتوياته
 أمام الوالي، أحذية عسكرية طويلة الرقبة تناشرت على الأرض، في
 الحال تجمّع القطيع حول الرجل، وانهالوا عليه ضرباً، وهم يكيلون
 له السباب، نظر أحمد بطرف عينيه نحو الرجل المنبطح على
 الأرض، والأقدام تركله في كلّ مكان يمكن الوصول إليه من جسده،
 وحال الفرقة لم تترك مكاناً في جسمه، إلا وتركت أثراً على عينيه، وقف
 مذهولاً مما يرى، قارن بين معاملة الفرنساوي الكافر له، ومعاملة
 هؤلاء المسلمين لفريستهم، شعر بلكرة خفيفة على ظهره تدفعه
 للتحرك، وصوت صارم يخترق أذنه:

- لماذا تقف هكذا؟

نظر خلفه، وجد الجندي، الذي رفض البراطيل من التاجر القصير، نظراته الحادة تستعجل الإجابة على سؤاله، تلعم وهو

يجيبه:

- لا شيء.

- هل تعرف هذا الرجل؟

وأشار نحو الرجل الملائى على الأرض، والأقدام تترافق عليه لركله، أجاب بسرعة نافيا التهمة عن نفسه:

- لم أره من قبل مطلقاً.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- كنت في انتظار قدوم خالي من الجيزة، يبدو أنها لم تتمكن من المجيء.

- عليك الرحيل من هنا، ما اسمك؟

- أحمد سالم المرجاوي.

- أسرع في المغادرة، فكما ترى والي الشرطة هنا، بعد أن أبلغنا عن القبض على هذا التاجر، الذي حاول تهريب بضائع للمماليك،

سوف أغمض عيني وأفتحهما؛ بعدها لا أريد أن أراك في الميناء أو
حتى بالقرب منه.

هز رأسه موافقاً، وأطلق لساقيه العنان، مسابقاً الريح، حمد ربه
بأنّ اليوم قد مر على خير، رغم الألم الذي ما زال يطبق على صدره.

(4)

الثار

على أريكة وثيره جلس يدخن نارجيلته الفخمة، المصنوعة من
البلور البلجيكي الفاخر، متأملاً سحب الدخان المتتصاعدة، مدد
ساقه اليمنى، وثنى اليسرى قليلاً أمامه، يبدو على عينيه الإجهاد
والتعب، سنوات من التمني والترحال تتسرّب من بين يديه كرمال
ناعمه، يخاصمه النوم إلا ساعات قليلة كل ليلة، وكما تمنيه أحلامه
بحكم مصر، تطارده كوابيس من استولى على عرش البلاد.

تولّت جارية رومية وضع الجمر على الحجر الفخاري للنارجile،
أحاطت بهموم بسيدها إحاطة الدخان لحجر نارجيلته، نظر نحوها،
وأشار إليها بوجه عابث بأنه انتهى من التدخين، توقفت عن وضع
الجمر على النارجile ذات المبسم الذهبي، وغادرت الغرفة في
صمت.

اعتدل محمد بك الألفي في جلسته، الملل يحتل حياته- ورغم ذلك- فشل اليأس في التسلل إلى قلبه، وكيف يقتنط وهو من عجز الفرنساويون الكفرة عن القبض عليه؟! كبدتهم خسائر لا حصر لها، وهم سادة الحروب الحديثة ومعلموها، حيرهم وأجهدهم حتى طردو من مصر على شفن أصدقائه.

استأذنه أحد حراس ديوانه أن يدخل عليه كاشف الفيوم، أشار له بالموافقة، في لحظات قليلة وقف الرجل ماثلاً أمامه في ملابسه العسكرية المزركشة، بادره بالسلام، نظر نحوه الألفي بك، وتبتسم وهو يرد عليه السلام، أشار له بالجلوس، جلس بجانبه في تأدُّب، نظر نحو معلمه، أقلقه ما يرى، ملامح القلق والضجر واضحة على وجه سيده، أراد أن يطمئن ويخفف عنه، بادره بالقول:

- تبدو مهموماً يا سيدي!

- كلّ ما حولي يدعو للحزن.

- روح عن نفسك يا مولاي، من نصرك من قبل؛ قادر على نصرك اليوم.

تنهد الأمير المصراتي من عمق قلبه، نصره الله كثيراً، حتى شعر أنه غير قابل للهزيمة، منحته ثقته قدرة خرافية على تجاوز المصاعب والأهوال، وبث الرعب في نفوس منافسيه وحاسديه، شعر مملوكة بأنّ كلماته هذه لم تف بالغرض المرجو، حاول أن يغير

جري الحديث؛ علّه يتمكن من الترويج عن أستاذه..

- هناك سؤال يحيرني، فهل تتفصل بالإجابة؟

- سل ما شئت.

- عندما أقارن بينك وبين أستاذك أجد الاختلاف بينكما كبيراً...

قاطعه الألفي قبل أن يكمل سؤاله، فهم مقصد الرجل، وضع رجله اليسرى على اليمنى، ليتقاطعا قبل الركبتين بقليل – يستريح كثيراً في تلك الجلسة_ أرجع ظهره للخلف، تنهَّد لتذكرة أستاده، الذي دفع فيه ألفاً من الغلال كهدية مقابلة لسليم أغا الغزاوي، نظر نحوه فاتسعت ابتسامته، والكلمات تخرج جزلة من فمه:

- هل تعلم لماذا أحبني مراد بك؟

- هذا ما يحيرني رغم اختلافكما الواضح.

- لم يتقن أحد من تلاميذه فنون القتال مثلـي، ومع هذا لم يكن ذاك هو السبب الحقيقي ليقربـني منه ويعتقـني بعد ذلك.

تعجبـ الرجل من حديثـه؛ صمتـ الألفي.. مجرد إشارة لكي يسألـه عن السبـب فـهذا هو أسلوبـه، والرـجل يفهمـه جـيداً فـبادرـه بالـسؤال:

- الكلـ يـرددـ أنـ مرادـ بكـ رـحـمـهـ اللـهـ أـهـدـىـ أـلـفـاـ منـ الغـلـالـ لـسـلـيمـ أـغاـ الغـزاـويـ ردـاـ عـلـىـ إـهـدائـهـ إـيـاكـ، هـلـ حدـثـ هـذـاـ حقـ؟ـ

- نعم، فعل، الكل يعرف هذه الحكاية، ويعلم أنّ هذا هو السرّ وراء تسميتي بالألفي، لكنه لم يحبّني أيضًا لأنّه دفع فيّ الكثير.

- ربما أحبّك لأنّك رفضت المعيشة مع الجنون.

ضحك كثيّراً عندما سمع هذا الاسم، لم يستطع أن يستجمع نفسه، إلا بعد أن سعل سعالات طويلة وحادة، خلّصته من الكثير من البلغم القابع في صدره، تمالك نفسه ونظر نحو الكاشف، الذي احمرّت وجنتاه من السعادة؛ لأنّه أخرجه من عبوسه، أخذ الألفي شهيقاً عميقاً، أخرجه على مهلٍ، عاد وجهه لللون الطبيعي بعد أن تحول إلى الأحمر القاني إثر سعاله الحاد، وضع مبسم نرجيلته في فمه، سحب عدّة أنفاس قصيرة متتالية، ثم نفّساً طويلاً ليعيد حجر النرجيلة إلى الحياة مرة أخرى قبل أن يعاود حديثه:

- هل تعلم أنّني من طلبيت من أحمد جاويش بك أن يبيعني؟

- حقاً!

- نعم، لقد كان جاويش هذا أو الجنون كما يحلو لي تسميته، قدراً بطريقة لا يمكن وصفها؛ لم أتحمل يا رجل رائحة منزله، رائحة الخمر، وعرق النساء، وتنن الدم ينبعث من كلّ مكان، صرخ النساء، والغلمان لا ينقطع طوال الليل، هو مجنون فعلاً، وجنونه، ومجونه يصل لحدّ السفه.

- فباعك للغزاوي بك كما طلبت؟

- لم أطلب بيعي للغزاوي بك بالتحديد، لم أكن أعرفه في هذا الوقت.

- لم تُحب على سؤالي بعد.

- مراد بك أحبنني لأن الناس تكرهني، هل تصدق ذلك؟!

ختم جملته، وانخرط مرة أخرى في نوبة من الضحك العصبي،
بعد لحظات قليلة، رجع لنفسه وأكمل حديثه:

- أتذَّكر يوم غضب على لأنّي ضربت هذا المملوك، الذي لا
أتذَّكر اسمه الآن، ومات بعد بضعة أيام، نفاني لkiller الشيخ طلحة
عقاباً لي، هناك فعلت ما يحلو لي فعله، جمعتُ الكثير من الأموال
انتقاماً منه لنفيي، ولأشتري مماليك أكثر، قدم الأهالي الكثير من
الشكاوى له، لكنه لم يحرّك ساكناً؛ وقتها فقط شعرت بحبه لي.

- لهذا أصبحت سنجقاً؟

- لا، حدث هذا عندما اتفق الأمراء على نفي الأمير مصطفى إلى
الإسكندرية، ولم يجرؤ أحد على مرافقته إلى منفاه، كنت سباقاً،
وتقدمت بكل شجاعة لإنجاز المهمة.

- وهل نجحت في مهمتك؟

- نعم، وطلبت منه كشوفية الشرقية گمکافأة.

اندهش الضيف عندما علم أنها كانت من اختياره، وليس فرضاً من أستاذه، تساءل متعجباً:

- مع أنهم أهل إغارة وسلب ونهب! لماذا اخترتها في حين كان بإمكانك اختيار مكان أفضل؟

- بالعكس هذا هو ما دفعني لأن أختارها، فلا يفل الحديد إلا الحديد، كنت أهوى عمل الشراك لهم؛ كم استمتعت وهم مكتلون بالحديد ويتولون راجين رحمتي وعفوبي.

- يبدو أن ما مارسته هناك ساعدك كثيراً في مقاومة الفنساويين

- بالطبع، فقد ضربت عصفوريين بحجر واحد، تدربيت على تلك النوعية من الحروب، وبسطت نفوذني على عربانها.

توقف عن الكلام عندما شعر بمراارة في حلقه؛ ربما من أثر الدخان، أو لشعوره بالندم على كثير من أفعاله في الماضي، طلب أن يحضروا لهما بعض من القهوة والحلوى، في الحال كان كل ما أمر به أمامهما، تحمله جارية ذات ملامح مثيرة، وقوام ممشوق، ونهدين نافرين.

التختبط الذي أحاط الألفي باد عليه، رغم أنه يحكم قبضته على رجاله، والكثير من العربان يتبعونه، إلا أنّ أمراء مصر انفضوا

من حوله، تشرذموا في فضائها الواسع، أغبياء كثيرون عندما كان غرراً، تمادى في ظلمه وغبائه، حصد الطاعون من رجاله وأتباعه ما حصد، في لحظات قليلة يتحول الفارس منهم لمجرد جثة، تعلم من الموت كيف يحب الحياة، ويتمسك بها؛ فهي تستحق أن يخوض الحرب تلو الحرب ليحياها كما يروق له.

صبت الجارية القهوة لسيدها وضيفه، ثرثر الضيف كثيراً، مبالغًا في وصف مناقب المضيف، ابتسم له في تودد مصطنع، عقله في مكان آخر؛ هناك في القلعة حيث العرش، الذي كان قاب قوسين منه، كانت كل الظروف مهيأة تماماً لأن يعتليه، وعلى حين غرة يظهر هذا القراقوز اللبناني ليبعده عنه، أغمض عينيه فرأه بعينيه الواسعتين، ولحيته الحمراء الكثة، يُخرج له لسانه، فتح عينيه؛ ليجد ذاك الثرثار مستمراً في حديثه، أشار إليه بأن يصمت، فهم الكاشف الرسالة دون عناء، فشكوه وأذن له بالانصراف.

وضعت الجارية القهوة جانباً، واقتربت من سيدها محاولة أن تحظى به في ليلتها، دون أن ينظر نحوها، أشار لها بأن ترحل في صمت، رحلت خارجة من القاعة، مصمصة شفتيها الحمراوين، ورفعت حاجبها الأيمن في سخرية، بعد أن ابتعدت عن باب القاعة، لطمته خدها برفق، متحسرة على فرصة ضاعت منها، فقد لا تسぬ الأقدار بمثلها.

(5)

زغرودة فرح

وسط الزحام الشديد وتدافع الناس، صعبت مهمة أحمد في أن يصل لحمار، تصيب العرق من جسمه النحيف، أنهكه اللُّف على الحمارين، تأكلت قدماه من المشي، وهم لا رحمة ولا شفقة، أسعار تأجير حمار صغير ازدادت ضعف ما كانت عليه في العام السابق، كل شيء تضاعف سعره رغم الفقر، الذي عمّ البلاد وانتشر.

وأخيراً تمكنَ من الفوز بواحد واستئجاره، قد يبدو ضعيفاً للمهمة المطلوبة، لكنه على كل حال سيفي بالغرض، رفض الجميع قبول هذا الجحش، وهو كافٍ بالنسبة لرحلة السيد البدوي، تهادى صاحبه في أجنته، امتطاه ومشي به كفارس منتصر، عائد من حرب عظيمة، فخورٌ جداً بنفسه وبغنيته.

أمام البيت كان الجميع في استقبال فارسهم المغوار، قفز من على ظهر حماره في حركة استعراضية، كاد أن يرتطم بالأرض، لولا يد والده التي أمسكته، كادت «عائشة» و«لala زار» أن تقعوا على الأرض من الضحك على فارسهم، تسلم «سالم» الحمار، ووضعه أمام العربية الكارو، التي أعدّها من قبل، وربطه بها.

كان عندهم حمارٌ من قبل، قويٌّ وضخم، اشتراه الأب جحشاً صغيراً، تولى أحمد رعايته، وعامله كفرد من أفراد العائلة، لكن الأتراك سرقوه في تجربة⁶ الحمير، لم يجد العثمانيون ما ينقلون به آلات حربهم ضد المماليك؛ فجمعوا كلَّ حمير القاهرة، لتساعدهم في مهمتهم، في تلك الأيام وصلت الأخبار له.. بأنَّ العساكر يخطفون الحمير من مالكيها. أخفى حيوانه العزيز داخل البيت، بعد أن كان يربطه خارج المنزل، لكن هيهات، يتذَكَّر جيداً عندما وقف عسكري تركي طويل بطربوش أحمر قانٍ، منتفضاً وهو يصرخ أمام بيتهما بصوت مفرع: (زر).

لوسُؤ حظهم، ارتفع نهيق الحمار من الداخل؛ فهجم العسكري على البيت، وسحبه خلفه أمام عينيَّ أحمد، لم يستطع أن يمنعه، لو أقدم على هذا؛ لأرداه قتيلاً، فرح جميع من شرقت حميرهم عندما هَرَّمَ محمد بك الألفي الأتراك، رغم أنَّ هذا الانتصار لم يعوضهم ما فقدوه، أو يعيد لهم حيواناتهم، التي تشاركونهم وتقاسموهم صفة الصبر.

6-تجربة: حملة عسكرية.

فشل أَحمد فِي مَا نجح فِيه «مُقبل» جاره، أخفى الحمار داخل منزله، حكى له كيف تمكّن من هذا، وضع قطعتين من القماش في أذني حماره، وهكذا نجا من السرقة،وها هو يعده عربته هو الآخر ومعه حماره، ستترافق العائلتان في الطريق ككل عام.

على بوابة السعادة وقف صف طويل من عربات الكارو، والحمير، والجمال، تحرّك الصف ببطء متناهٍ، وجلس أَحمد بحلباب قديم رصاصي اللون على إحدى العربات، وفي يديه حبل سرعة الحمار على الطرف الأيمن للعربة، ذات العجلات الخشبية، في وسط العربة جلست أم أَحمد وأختها «لا لا زار» يتبدلان ذكرياتهما عن رحلتهما السنوية إلى طاندتا، في الخلف جلست فاطمة وعائشة تتبدلان أطراف الحديث، وعين بنت الخالة لا تكف عن النظر على ابن خالتها؛ قائد الرحلة.

استرق أَحمد النظر نحو بنت خالتها، تأمل عينيها السوداويتين، وحاجبيها المقوسيين، الذين زادا عينيها اتساعاً، لاحظت عائشة نظرات ابن خالتها، التي تكاد أن تلتهمها في تلذذ ورفق؛ فاحمرت وجنتها خجلاً، حاولت فتح حديث مع فاطمة، التي غمزت لها بعينيها، وأومأت برأسها نحو أخيها، ازدادت حمرة وجه عائشة، فدفنت رأسها بين رجلتيها، تعلّت ضحكات فاطمة والمرأتين، عاود أَحمد النظر أمامه منتبها للطريق، كما أمرته أمّه، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

تَحَرَّكَ الصُّفْ بعْضَ الْخَطُوطَ، فِجَاءَ حَلُّ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ فِي
الْمَكَانِ، فَقَدْ قَبَضَ أَحَدُ الْعُسَارِ عَلَى تَلِيسَ مَمْلُوءَ بِمَلَابِسِ لِجِيشِ
الْمَمَالِيكِ، لَمْ يُجِدِ الْبَرَاطِيلِ؛ لِأَنَّ التَّعْلِيمَاتِ مُشَدَّدَةٌ، وَمَنْ يَخَالِفُ
الْتَّعْلِيمَاتِ، أُوْيَتِقَاعِسٌ؛ لَا يَعْرُفُ مَا سِيَحْدُثُ لَهُ فِي سُجُونِ الْبَاشَا.

تَعَطَّلَتِ الْمَسِيرَةِ بَعْدَ أَنْ أَحَقَّ الْجُنُودِ إِغْلَاقَ الْبَوَابَةِ، عَاثُوا فَسَادًا
فِي مَمْتَكَاتِ النَّاسِ، نَبَشُوا كُلَّ مَا تَصِلُّ إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ، أَتَلَفُوا الطَّعَامَ،
الَّذِي أَعْدَهُ الْمَغَادِرُونَ لِمَوْلَدِ الْبَدْوِيِّ، أَلْقَوُا النَّذُورَ تَحْتَ سَنَابِكِ
خَيُولِهِمْ، ضَرَبُوا الرِّجَالَ وَسَبُّوا النِّسَاءَ.

تَلَقَّتْ أَحْمَدُ حَوْلَهُ فِي قَلْقٍ، كَانَ طَعَامُهُمْ قَلِيلًا، يَكْفِيهِمْ بِالْكَادِ؛
بعْضُ الْخَبَزِ الْمَلَدَنِ، عَسْلٌ أَسْوَدٌ، وَالْقَلِيلُ مِنَ السَّمَنِ، وَقَطْعٌ مِنْ
الْجِنِّ الْقَدِيمِ، لَوْ فَقَدُوا مَؤْوِنَتِهِمْ؛ سَيَعُودُونَ دُونَ أَنْ يَزُورُوا الْمَقَامِ،
الَّذِي اعْتَادُوا زِيَارَتِهِ كُلَّ عَامٍ.

ضَجَّ الْمَكَانُ بِغَضَبِ الْجُنُودِ، تَعَالَتْ أَصْوَاتُ الْفَرْقَلَاتِ عَلَى
صَوْتِ هَمَمَاتِ النَّاسِ، زَادَ جَمْوحُ حَرَاسِ الْبَوَابَةِ، وَجَالُوا ظَلْمًا بَيْنِ
الْمَسَافِرِينَ، كُلَّ مَنْ حَاوَلَ أَنْ يَمْنَعَهُمْ، وَلَوْ بِكَلْمَةٍ أَوْ رَجَاءٍ؛ مَصِيرَهُ
الْضَّرَبِ الْمُبِرَّحِ، التَّصْقَتْ فَاطِمَةُ وَعَائِشَةُ بِأَقْيَاهُمَا، زَاغَتْ نَظَرَاتُ
الْجَمِيعِ، قَفَزَ أَحْمَدُ مِنْ فَوْقِ الْعَرْبَةِ، وَجَرَى نَحْوَ جَنْدِيٍّ يَقْفَ بالقَرْبِ
مِنَ الْبَوَابَةِ، وَوَقَفَ أَمَامَهُ فِي احْتِرَامٍ مُبَالِغٍ فِيهِ، انْحَنَى عَلَى يَدِهِ
لِيَقْبَلَهَا، نَزَعَهَا الْجَنْدِيُّ مِنْهُ بِرْفَقٍ، رَفَعَ أَحْمَدَ رَأْسَهُ، فَابْتَسَمَ الْجَنْدِيُّ
وَهُوَ يَرْبَطُ عَلَى كَتْفِهِ:

- أنتَ أَحْمَدُ الْمَرْجَاوِيِّ، أَلِيسْ كَذَلِكَ؟

اندهش أَنَّهُ يَتَذَكَّرُ اسْمَهُ، أَجَابَ عَلَى الْفُورِ:

- نَعَمْ، يَا سَيِّدِي.

- كَنْتَ فِي انتِظارِ عَمْتَكَ أَوْ خَالِتَكَ فِي مِينَاءِ بُولَاقَ مِنْ يَوْمَيْنِ؟

- نَعَمْ يَا سَيِّدِي.

- هَلْ حَضَرْتَ؟!

- نَعَمْ، عَنْدَمَا عَدْتُ إِلَى الْمَنْزِلِ وَجَدْتُهَا هُنَاكَ، يَبْدُو أَنَّهَا مَرَّتْ
دُونَ أَنْ أَرَاهَا.

وَمَاذَا تَرِيدُ يَا مَرْجَاوِي؟

- أَتَوْسِلُ إِلَيْكُمْ أَنْ نَمَرُّ مِنَ الْبَوَابَةِ دُونَ تَفْتِيشٍ، أَوْ أَنْ تَفْتَشَ مَتَاعِنَا أَنْتَ إِنْ
تَكْرِمُ.

أشار الجندي لأحمد أن يسبقه، جرى أحمد نحو العربية، والصفرة ما زالت تعلو
ملامحه، اقترب من العربية، في عجلة ألقى الجندي نظرة على متاعهم؛ قطع من
الجبن القديم، وعروق الكرنب المغمومسة في المِش الأصفر المعتق، أرغفة خبز
يابسة عجنتها، وخبزتها أم أحمد من دقق الذرة، وبعض حبيبات البصل، أشار
لأحمد بأن يتجه نحو البوابة، ورجاه أن يفتش عربة عائلة «مُقبل» جاره، نظرة
واحدة صارمة كافية بأن يعتذر عن طلبه، ويسرع في عبور البوابة.

شقّت العربية طريقها بصعوبة بالغة نحو البوابة، سحب أحمد الحمار، ونکزه ليُسرع؛ فكلما حاول جنديُّ التعرض للعربية، أخبره الجندي بإشارات من يده بأنّه فتشهم، ولم يعثر على شيء مخالف، وأخيراً مرّوا من البوابة، رفع يده نحو الجندي شاكراً إياه، لكنه أغلق البوابة دون أن يردّ التحية.

أطلقت «لا لا زار» زغرودة فرحة؛ بأنّهم مرّوا من هذه الغمّة على خير، حيث أحمد الحمار على الإسراع، تمنى أن يطوي الأرض طيّاً؛ ليصلوا إلى طاندتا في ثوانٍ، الطريق طويل، والشمس أوشكت على المغيب، جدّ في المسير قبل أن يحلّ الليل، بعد ساعات قليلة سيكون التحرّك على الطرّق أمراً خطيراً، حتى لو كنت تسير مع قافلة، على بُعد رأي قرية صغيرة؛ تنفس الصعداء، سيببّيتون ليلتهم على اعتابها.

على أطراف القرية تزاحم الكثير من المسافرين، تجمّعوا في حلقات وأشعلا النيران وجلسوا حولها يتسامرون، وبالقرب من عائلة صغيرة أوقف أحمد العربية، وألقى عليهم السلام؛ فرّجّبوا بهم، نزل ثم انزل أمه وخالتها، وبرفق تناول بنت خالتها من خصرها، تلاقت عيناه بعينيها من تحت البرقع، ارتجّت أنفاسهما، تمنى أن يضمّها، ويُدخلها في ذاته ويتوحد معها، يصبحان جسداً واحداً، انتظرت منه ذلك، لو فعلها؛ ما منعته، رغبتها في أن يمتلكها وتمتلكه كانت قوية؛ لدرجة أنها نسيت كلّ من حولها، لم تعِ وجود أمّها، لم تهتم

بنظرات خالتها، لم تخجل من نظرات الناس حولها، ولا ضحكات الشباب المسافرين، وصغيرهم العالي، وكزات يد فاطمة على كتف أخيها كانت كفيلة بإنهاء الحلم الجميل، هبّطت من سحابتها العالية، سحب يده بخفة من جنبي خصرها وضغط عليه، تمنّت أن يكونا وحدهما في هذا الكون، حسدت أمها حواء على وحدتها مع آدم، كم كانوا سعيدين قبل أن يأتيا بكلّ هذا الخلق لهذا العالم.

(6)

شيطان الغيرة

قبل أذان الفجر بقليل، أفاق أحمد من نومه على صخب، تلقت
حوله؛ وجد زورقاً تصدح منه الموسيقى، وضوء فوانيسه الباهرة
الملونة تنعكس على صفة النيل، اقترب من الشاطئ فرأى ثلات
راقصات، شبه عاريات، يرقصن في مجنون أمام بضعة رجال، قد
ذهب الخمر بعقولهم، إحداهن سمينة ممتلئة، ثانياً بطنها تتدلّى
أمامها، مع أقل حركة منها يرتج لحمها، وكأنّه يتردّد في السقوط من
على جسمها، نامت على سطح المركب الصغير، غارقة في إيماءات
فاضحة، زادت من حركاتها، وغاص الرجال في الضحك، حتى كاد
أن يقع أحدهم من على المركب، في مقدمة الزورق راقصة قصيرة
إلى حد ما، لم تكن ترتدي إلا ما تسره ورقة التوت، صبغت شعرها
باللون الأحمر، أو هكذا رأه أحمد في ضوء المصايد الصفراء، التي
تضيء المركب من الأمام، تعلقت عيون الرجال كلّهم بالراقصة

الثالثة، والتي كانت متوسطة الطول، شعرها الأسود الطويل الناعم
التصق بعضاً منه بظهرها إثر العرق، الذي يندّي جسمها الخمرى،
ترقص بدلالٍ بالغ أثارأحمد، أثناء متابعته الزورق وهو يبتعد رويداً
رويداً من أمام ناظريه.

إنتبه لنفسه عندما وجد مجموعة من الشباب يقفون بجواره،
يتبعون الموقف مثله، بل إنّ بعضهم تتبع الزورق؛ ليتمتع نظره بتلك
الفاتنة ذات الشعر الناعم، تلفت حوله، وجدهم جميعاً هائمين في
خيالاتهم، مدّ أحدهم يده في شَقْ جلبابه؛ يداعب قضيبه في تلذذٍ
وبلاهة، داهمه الخجل، وقرر العودة ليكمل نومه، رجّت تكبيرات
أذان الفجر نفوس الهايمين، وأيقظت من لم يحظ بمتابعة الزورق،
انتشروا خلف الأشجار، وبين البوص، لقضاء حاجتهم، ثم عادوا
مسرعين إلى النيل للوضوء، اغتسلوا بماء حَمَل لهم المعصية من
قبل؛ ليتخلصوا من ذنوب فتنتهم منذ قليل، اصطفوا وراء كهلٍ ذي
لحية طويلة بيضاء، ووجهه أسمر، وظهره معقوف، رفع أحمد عقيرته
ليقيم صلاة الفجر، ومشهد الراقصة الخمرية يتحرك أمام ناظريه.

عاد لعائلته، وجدهم أفاقوا من نومهم، نظر لووجه أخته، الذي
كاد أن يضيء من البياض والجمال، ألقى نظرة على وجه عائشة،
فوجد النور يفيض من وجهها هي الأخرى، لا تقل جمالاً عن أخته،
مع جسم نافر يسابق عمرها، لمعان عينيها يكاد يفضح حبّها
له، وحمرة شفتيها تدعوه لتقبيلهما، جلس وسطهم؛ فالتفوا في

شبه دائرة حول قطعة من الجبن القديم والخبز الجاف، جمعت عائشة وفاطمة بعض الخضروات الورقية، التي نبتت على أطراف حقلٍ قريبٍ، جلس وسط أخيه وأمه وبادلهم تحية الصباح، مدعديه ليتناول كسرة خبز، وفجأة تذكر الحمار المسكين الذي يحرّ عربتهم، لا بد أنّه هو الآخر جائعٌ، فعاد لضفة النيل، جمّع حشائش كافية له، وضعها أمامه وعاد مسرعاً، ليستقر بين أخيه وعائشة، وعيناه معلقتان على شفتَي ابنة خالته، اللتين تتحرّكان في رتابة مثيرة، وهي تمضغ طعامها.

قبل أن يلمع النهار، تحرّكوا جميعاً في شبه قافلة، نظر حوله يتبيّن هل تمكن جاره مقبل من اللحاق به؟ لكنه لم يستطع أن يراه وسط هذا الغبار، الذي تشيره الحيوانات، وهي تدب دبيبًا لا يتوقف نحو المولد في وسط الدلتا.

قبل أن تتوسط الشمس كبد السماء، مروا بجوار الزورق الماجن، سكنت الموسيقى، نامت الفرقة الموسيقية تحت مكان ظليل، إرتمى الرجال نائمين بجانب الرقصات، تحت لهيب الشمس، بعد أن أنهكهم اللهو، وأفقدتهم الخمر وعيهم، بحث أحمد عن ذات الشعر الناعم، التي فتنّته منذ ساعات قليلة، وجدها نائمة في أحضان رجل، فحاول أن يتبيّن ملامحها، لم يتمكّن من ذلك، لاحظ أنها شديدة القصر عما كان يتصوّر عندما رأها لأول وهلة، كما أنّ بشرتها كالحلاة لا جاذبية فيها، وشعرها الطويل ليس بالأسود، ولا هو ناعم، على العكس كان كستنائيًا شديد التبعيد.

لاحظت فاطمة انشغال أخيها بالنظر نحو الزورق الطافي على وجه النيل، وكزت عائشة منبهة إياها لما يدور حولها، غلى الدم فيعروقها، وسررت سموم الغيرة في جسدها، طاش عقلها، قامت غاضبة من فورها، وجلست إلى يساره لتحجب رؤية النهر وما فيه عنه، وقد تملّكتها الغضب، وبادرته وهي تحاول أن تخفف من حدة صوتها:

- إلى ما تنظر؟

تنبه أحمد من شروده، ولم يجد ما يجيب به، رسم على وجهه ابتسامة ساذجة، وهو يرد:

- لا شيء.

نظرت عائشة خلفها نحو الزورق، الذي تجاوزوه بقليل، وأشارت نحوه وهي تكُرُّ شفتها، فزادتا تألهَا:

- من فيهن تعجبك؟ تلك الشمطاء الهزيلة أم هذه السمينة التيتشبه البقرة؟

- لا أحد، كنت أتأمل فقط مياه النيل.

- عليك أن تستدير الآن وفوريًا، لا أريد أن أذهب لطانتدا هذا العام.

نظر أَحْمَدُ نَحْوَهَا، وَالْدَّهْشَةُ طَافِيَّةٌ عَلَى عَيْنِيهِ، وَتَسَاءُلٌ بِصَوْتٍ
حَانِ:

- مَاذَا حَدَثَ لِكُلِّ هَذَا؟

- أَلَا تَعْرِفُ مَاذَا حَدَثَ؟

- لَا، لَا أَعْرِفُ، أَخْبَرِينِي أَنْتِ.

- تَنْظُرُ لِتَلْكَ الْغَانِيَاتِ وَتَسْأَلُ فِي بِرَاءَةِ مُصْطَنَعَةٍ مَاذَا حَدَثَ؟

دَقَّ قَلْبُ أَحْمَدٍ مِنَ الْفَرَحَةِ، غَيْرَتْهَا عَلَيْهِ مَا هِيَ إِلَّا عَلَامَةٌ مِنْ
عَلَامَاتِ الْحُبِّ، زَادَ جَنُونُ الْغَيْرَةِ قَلْبُ عَائِشَةَ احْتِرَاقاً، أَرْدَفَتْ طَالِبَة
فِي إِصْرَارٍ:

- عُدْ بِنَا إِلَآنَ كَمَا أَخْبَرْتَكَ.

- لَا لَنْ نَعُودُ، وَلَمْ أَكُنْ أَنْظُرَ لِتَلْكَ النِّسْوَةِ، وَكَيْفَ أَنْظُرَ لَهُنَّ وَقَدْ
أَعْمَى نُورُكِ عَيْنَيِّ!

انْفَرَجَ فِيمَهَا عَنْ ابْتِسَامَةِ أَخْفَتْهَا بِسُرْعَةٍ، وَعَادَتْ لِتَقْطُبِ مَا بَيْنَ
حَاجِبَيْهَا، وَهِيَ تَهَدِّدُ:

- لَوْ حَدَثَ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى سَتَعُودُ بِنَا إِلَى مَصْرٍ، مَفْهُومُ؟

- لَمْ يَحْدُثْ مِنْ قَبْلِ لِيَحْدُثْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَعَ ذَلِكَ، نَعَمْ، مَفْهُومُ.

أشاحت بوجهها بعيداً عنه، في حين تعالت ضحكات الأمهات في الخلف، تلك الضحكات التي كتمنها منذ فترة طويلة، من توقعات نتيجة النقاش الهامس بينهما، أشار أحمد لها بأنّ تعود لمكانها، فقد اقتربوا من الصندل الذي سيعبر بهم النيل، أوشك رحلتهم على الانتهاء، ساعات قليلة ويكونون على مشارف اعتاب البدوي.

توقفت القافلة في انتظار عودة الصندل من الضفة الأخرى، لا نظام يرتب هذا الزحام، الرغبة في السبق هي المسيطرة، حتى لو كنت آخر الوالصليين، مما يؤدي للكثير من المشاحنات، التي تبدأ بصوت عالي يتحول إلى سباب، تزداد حدة الموقف فينقلب إلى تهديدات بالاشتباك بالأيدي، وبعد تدخلات من بعض الحكماء يتحول الشجار إلى حلبة من التعارف.

في وسط هذا الزحام قفز أحمد من العربة وتلقف الجرة الفخارية، وذهب نحو الشاطئ، الصندل لم يرُس بعد على الجهة المقابلة، والوقت وافر لأن يملأها؛ انحنى وغمّسها كلها تحت الماء، تأمل محاولات الهواء للهروب من داخلها على شكل فقاعات متتالية، لاحظ نظرات عائشة تراقبه عن كثب، لو لمحته ينظر لغيرها ستغرقه في ماء النيل هو والجرة، وكل من يعترض على هذا، هكذا حدثها شيطان غيرتها الجامح.

عاد إلى العربة ووقف ينتظر دوره، عاد الصندل واستقر، وتدافع الجميع نحوه، مر «أحمد» بعربته على الرصيف الخشبي الضيق

في طريقه نحو الصندل، وبعد العديد من المحاورات، التي يتقنها،
شعر بأنّ هناك عيوناً تراقبه، إنها ليست عيون عائشة، مراقبتها له
تثير في داخله مزيجاً من المشاعر المحببة المغلفة بالطمأنينة،
هذه المرة يشعر بنوع من القلق والريبة، تلقت حوله محاولاً أن
يتبيّن صدق حُدْسِه، الذي لم يكذب عليه من قبل، لم يستطع
تبيّن ما يُرِيكَه، في دقائق امتلاً الصندل، وقف على عربته جاهداً
أن يكتشف من يراقبه، جذبته عائشة من طرف جلبابه بقوّة لأسفل،
كاد أن يفقد توازنه، ويقع على وجهه، لكنّه تمالك نفسه وجلس،
وكما كانت الغيرة تحرق قلب ابنة خالتة من قبل، اشتعلت نار
الحيرة في جسد أحمد الطويل الممشوق.

(7)

رصاصات عشوائية

أعاق الزحام خلف المسجد البدوي أَحْمَدَ مِنْ أَنْ يشق طريقه،
وسط تلك الضوضاء سمع من ينادي، تلَفَّت حوله، لم يستطع أن يجد
مصدر الصوت، تكرار النداء؛ جعله يقف على العربية مرة أخرى،
يستطلع من ينادي، على بُعد أمتار قليلة وجد «مُقبل» يلوح له
بحماسٍ، يشير له بأَنَّه حَصَلَ على خيمة، وحجز أخرى من أجله، لم
يتعجب من أَنَّ جاره قد سبقه، رغم أَنَّه لم يَرِه مُطلقاً في طريقه،
ولم يندهش أَنَّه عثر على خيمتين لهما، فهو ساحر وله طُرُقه وحلوله
المبتكرة، وكما حافظ على حماره من قبل، هو قادر على أن يفعل أي
شيء، كمشعوذ سُخِرت له قبيلة من الجان لتلبية أوامره.

في الحال دخلت النسوة إلى الخيمة، يرببن متاعهن القليل،
زادت دهشتهن عندما وجدن الكثير من المؤن؛ سمن وعسل ودقيق

ولحم وأشياء أخرى كثيرة، وقف أحمد مع مقبل بين الخيمتين ليشكره، ولأول مرة في حياته يشعر بأنّ جاره الغامض يمكن أن يفيده، لم ينتبه أحمد من كلمات الشكر حتى خرجت أمّه لتشكره هي الأخرى، لم تكتف بالشكر بل سألته:

- كيف حصلت على هاتين الخيمتين؟

تبسم وهو يجيبها:

- أهل الخير دلّوني عليها، عندما طلبت منهم خيمة أخرى لم يمانعوا، وقف حارسًا عليها حتى تحضروا وتسنلّوها.

- وأهل الخير هم من وفّروا كلّ ما فيها؟

- نعم يا أمّ أحمد، وجدت في خيمتي نفس ما عندكم، شيء لله يا بدوي مدد.

لم يفهم أحمد ما يتحدثون عنه فسأل أمّه:

- وماذا وجدت في الخيمة؟

لم تجبه، وربما لم تسمعه من الضجيج حولهم، أو أنها تركت الإجابة لمقبل، وانصرفت عائدة لخيمتها وهي تردد:

- مدد يا سيد، مدد يا بدوي، مدد يا آل البيت.

أعاد أحمد السؤال عليه، فأجابه باقتضاب وهو يهز رأسه
كالدراوיש:

- ربَّكَ غمرنا بخيره، نقول لا ؟! الله حيٌ؛ مدد.

سحبه من يده وراحًا يتجلون في المولد، ورأسه مستمر في التأرجح، توقف أحمد عن الكلام، بدأ ينظر حوله محاولاً التعايش مع أجواء المناسبة، كان المسؤولون يملأون المكان، في كل خطوة تقريرياً يوقفهم رجل أو امرأة أو طفل يطلب منهم حسنة، يستثمرون عاهات مصطنعة تفتنوا في إظهارها، لم ينشغل بهم لسبعين؛ أولهما.. أنه لا يملك شيئاً ليحسن لهم به، ثانيةهما.. هم لا يستحقون الإحسان، وهو واثق من هذا، ما لفت انتباذه هو منظر الأطفال البائس بسيقانهم الهزيلة وهم يمشون شبه عراة، أعناقهم المدللة على صدورهم من الضعف، آثار الشفقة في نفسه، صحيح أنه معتاد على رؤية مثل هذا من قبل لكن ليس بمثل هذا العدد، حتى في السنوات الماضية وفي نفس هذه المناسبة لم يكونوا بهذا الكم، كان رفيقه عكسه تماماً، فلم يهتم بأمر هؤلاء مطلقاً، وكيف له أن يهتم وهو يتبع أولئك النساء، اللواتي وقفن أمام بعض الخيام، ينادين راغبي المتعة **بالفاظ وإيماءاتٍ جنسيةٍ** متعارف عليها، لحظات قليلةٍ وتابه أحمد عن جاره، نظر حوله لم يجده، عاد أدراجه نحو خيمته ليمارس مهنته القديمة التي يهواها وهي الطبخ.

في الخيمة عرف إجابة سؤاله، وجد كلّ ما يحتاجه لطهي وجبة فاخرة، حتى لحم الضأن كان متوفّراً، أشعل ناراً خلف الخيمة، وشرع في عمله، وقفت عائشة تشاهده وهو يحاول إشعال النيران، ويدها تفرك بعض فصوص الثوم لتقشرها كما طلب حبيب قلبها.

جذبت رائحة الطعام بعض النساء وأطفال الخيام حوله، وقفن يتابعن الطباخ الماهر وهو يعده، بعضهن سأله عن طريقة عمل بعض الأطعمة، كان يجيبهنّ ورأسه مطأطئ في الأرض، أو محاولاً التظاهر بالانشغال في عمله، كلّ هذا لم يشفع له عند الغيورة، ما إن انتهتى من الطهو، وحمل القدور داخل الخيمة، حتى قابلته عائشة بوابٍ من الكلمات اللاذعة، حاولت أمّها تكميم فمها، لكنها لم تفلح في هذا، وانطلق من فيها الكلام كبندقية انطلقت منها رصاصات عشوائية دون أن يضغط أحد على زنادها، وانتهى القصف بـكيلٍ اللعنات عليه.

هدأت بعض الشيء، وأصرّت على رفضها مشاركتهم وجبتهم، وبعد إلجاج من الجميع؛ وافقت أن تأكل، بعد أن أفلت شروطها بأن يتوقف عن الطهي، أو أن يظهره داخل الخيمة، وعلى الجميع أن يتحملوا الدخان، وافقوا على ذلك، فجلست لتأكل وهي تعطيهم ظهرها .

قبل أن يبدأوا في تناول غدائهم، وصل إلى مسامعهم صوت مقبل من خارج الخيمة، وصوت تصفيق يستأذن أن يخرج أحمد إليه، قام على مضضٍ وسط سخط كلّ من في الخيمة على جارهم،

الذى وَفَرَ لِهِمْ تِلْكَ الْخِيمَةُ الْأَنِيْقَةُ وَمَحْتُوِيَّاتِهَا الْفَاخِرَةُ.

سَأَلَهُ عَنْ سِرِّ اخْتِفَائِهِ فَلَمْ يَجْبَهُ، أَخْبَرَهُ بِأَنَّ هُنَاكَ شَخْصًا مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ يَنْتَظِرُهُ فِي خِيمَتِهِ، تَسْأَلُ عَنْ سِرِّ هَذَا الرَّجُلِ، ارْتَبَكَ قَلِيلًاً قَبْلَ أَنْ يَجْبِيهِ، خَمَّنَ بِأَنَّهُ رَبِّمَا شَمَ رَائِحَةَ طَبِخَهُ وَيَرِيدُ أَنْ يَتَذَوَّقَهُ.

تَمَيَّزَتْ خِيمَةُ مَقْبِلَ بِكَبَرِ حَجْمِهَا، كَمَا أَنَّهَا مَقْسُمَةٌ لِقَسْمَيْنِ جُزْءَ كَبِيرٍ مِنْهَا مُخَصَّصٌ كَدِيوَانٍ صَغِيرٍ مَفْرُوشٌ بِحَصِيرَةٍ عَلَى أَطْرَافِهَا مَرَاتِبٌ قَطْنِيَّةٌ مَرْفُوعَةٌ بَعْضُ الشَّيْءِ عَنِ الْأَرْضِيَّةِ، لِلْخِيمَةِ نَافِذَةٌ عَلَيْهَا سَتَارَةٌ رَقِيقَةٌ مَرْسُومَةٌ عَلَيْهَا بَعْضُ الْوَزْدَ زَاهِيُّ الْأَلْوَانِ، فِي صَدْرِ الدِّيَوَانِ وَعَلَى أَكْثَرِ الْمَرَاتِبِ إِرْتِفَاعًا جَلَسَ رَجُلٌ طَوِيلٌ، تَوَحِي مَلَابِسَهُ بِأَنَّهُ تَاجِرٌ غَنِيٌّ، أَوْ رَجُلٌ دُولِيٌّ، ذُو شَأنٍ عَظِيمٍ، لَثَمَ وَجْهَهُ بِشَالٍ كَشْمِيرِيٍّ أَزْرَقٌ مُتَنَاسِقٌ مَعَ الْأَلْوَانِ مَلَابِسَهِ، الَّتِي اتَّسَمَتْ بِالرَّقَّةِ وَالْفَخَامَةِ.

نَظَرَ الْمَلِئَمُ لِأَحْمَدَ، وَسَأَلَهُ دُونَ أَنْ يَنْزِعَ اللِّثَامَ عَنْ وَجْهِهِ:

- أَنْتَ أَحْمَدُ سَالِمُ الْمَرْجَاوِي؟

- نَعَمْ يَا سَيِّدِي.

- هَلْ تَجِيدُ الطَّهِيَّ؟

تدخل مقبل في الحديث:

- إن رائحة طعامه تجذب أهل الحي يا ...

نظرة واحدة من الملثم جعلت مقبل يبتلع لسانه ويقف صامتا،
لم يُعد الملثم السؤال، فأشار بيده لأحمد أن أجب، استجمع
شجاعته وهو يتلعثم في الرد:

- أعتقد ذلك يا سيدى، كل من تذوق طعامي أبدى استحسانه.

- هل تجيد طهو الأكلات الإفرنجية؟

- كل أنواع الطعام يا سيدى، تعلمت الأكلات الإفرنجية أثناء
خدمتي لمسيو ألبرت ...

قاطعه الملثم في حدة:

- أعلم أنك كنت تعمل عند هذا الفرنسي الكافر، أنت مطلوب للعمل عند
مسلم هذه المرة، ستتقاضى أضعاف ما كان يدفعه لك هذا الكهل المشرك.

- لكن يا سيدى ...

أشار الملثم له بيده أن يتوقف، فتوقف بسرعة، جذب أحمد
برفق وأجلسه بجواره، مد يده لطبق الفاكهة الموجود أمامه، التقط
تفاحة كبيرة وغَرَّضَها على أحمد، وهو يكمل حديثه في هدوء وثقة:

- أنت مكلف بهذا العمل من قبل جناب البasha.

- محمد علي!

- أجل، أفندينا محمد علي باشا.

- هل سأعمل عند مولانا البasha؟

- لا؛ بل ستعمل عند عدو للبasha.

ظهرت الحيرة على وجه أحمد، اقترب الملثم منه، وهمس في أذنه، بعد أن تعلّت بعض الصيحات في الخارج:

- سترسلك لتعمل عند محمد بك الألفي، لا تهتم بذلك، كل شيء مرتب، هل أنت مستعد لزواجه من عائشة؟

نظر أحمد نحو مقبل، الذي أشار بيده أنه لم يخبره بشيء، أكمل الملثم حديثه:

- لا تقلق على عائشة.

- لا أفهم.

- عائشة وكل من كان في الخيمة معك منذ قليل في الحفظ والصون.

انتفضَ أَحْمَدُ مِنْ جَلْسَتِهِ، وَقَفَزَ خارجًا مِنْ الْخِيمَةِ، كَادَتْ أَنْ تعرقله حِبَالُهَا، دَخَلَ خِيمَتِهِ فَوْجَدَهَا خَالِيَّةً إِلَّا مِنَ الْمَتَاعِ وَالطَّعَامِ، الَّذِي أَعْدَهُ مِنْ قَبْلٍ مَرْصُوصًا عَلَى الْأَرْضِ، فَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ الْكَثِيرُ، طَاشَ عَقْلُهُ، وَعَادَ مَهْرُولًا لِخِيمَةِ مَقْبِلٍ، حَاوَلَ أَنْ يَمْسِكَ بِتَلَابِيبِ الْمَلْثَمِ، فَدَفَعَهُ بَعِيدًا عَنْهُ، سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَفَ الْغَامِضُ فِي ثَبَاتٍ أَمَامَهُ، رَمَاهُ بِنَظَرَةٍ حَادَةٍ وَهُوَ يَلْقَى بِأَوْامِرِهِ:

- سَتَذْهَبُ وَتَرَافِقُ الْأَلْفِيِّ وَسَتَنْفَذُ مَا يُطَلَّبُ مِنْكَ، لَا تَقْلِقْ عَلَى أَهْلَكَ سَيَعِيشُونَ حَيَاةً لَمْ يَحْلِمُوا بِهَا، عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ عَاقِلًا وَتَفْهُمَ مَاذَا يَجْبُ أَنْ تَفْعَلَ؟

أَوْمَأَ أَحْمَدَ بِرَأْسِهِ فِي إِذْعَانٍ بِالْمَوْافَقَةِ، رَفَعَ الرَّجُلَ لِثَامِهِ لِيُظْهِرَ لِهِ وَجْهَهُ، تَمَّعَنَّ أَحْمَدَ فِي مَلَامِحِهِ وَهُوَ يَصِيحُ:

- أَنْتَ! إِنَّهُ أَنْتَ!

تَبَسَّمَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَسْاعِدُ أَحْمَدَ عَلَى النَّهْوِ:

- نَعَمْ، إِنَّهُ أَنَا، التَّقِيتُ بِكَ مِنْ قَبْلِ فِي بُولَاقَ، وَسَاعَدْتُكَ عَلَى الْخُروجِ مِنْ بَوَابَةِ السَّعَادَةِ، كُنْتُ أَرَاقِبُكَ طَوَالَ رَحْلَتِكَ، اسْمِي «عَزُّ الدِّين»؛ اسْتَدَارَ الصَّحْبَةُ⁷ «عَزُّ الدِّين»، عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعِدَّ لِلرِّحِيلِ، لَا تَأْكُلْ مِنَ الَّذِي

7- المشرف على المطبخ السلطاني والطعام وخدمة السماط. عادةً يكون أمير عشرة.

طهوته، وإلا ستذهب في نوم عميق، هيا اذهب وأحضر
ملابسك، التي بالخيمة ستنطلق في الحال.

جرجر أحمد قدميه خارجاً من الخيمة لا يعي ما
حدث، هل هذا حقيقي؟ أم أنه كابوس مُخيف؟ اسودت
الدنيا في وجهه، عليه أن ين الصاع لأوامر هذا الأمير، وإن
فَقدَ أغلى ما يملك، التقط بُلغته من أحد أركان خيمته،
دس طرفي قدميه فيها وعاد مذعنًا صاغرًا لخيمة مقبل، يحمل
هموم الدنيا على كتفيه.

(8)

بريق خاص

جلس محمد بك الألفي يدخن نرجيلته، تصاعدت سحب الدخان من فمه وهو يهز رأسه موافقاً، لا يعلم أحد لم يهز رأسه، ولا علام يوافق هكذا، منذ فترة طويلة وهو قليل الكلام، كثير الصمت، دائم التأمل، داخل هذا الرأس، الذي غزاه الشيب أفكار لا يستهان بها.

أرسل لإنجلترا الرسل يطلب منهم القدوم كما وعدوه، عليهم أن يبزوا بوعدهم على الفور؛ فالذئب قد استولى على السلطة، وكلما طالت المدة، تمكّن من تثبيت حكمه، وفرض سلطوته، أليس هو من سُمِّ مساعدته الأول ونائبه «بشتوك باشا»؟ إنه هو بكل تأكيد، من الذي خدع المماليك وجعلهم يعصون هذا الصامت؟ هو دون شك، الويل لك يا محمد علي، سيقتله في يوم من الأيام، سيقطع رأسه ويفرغها من كل القاذورات، التي في داخلها، ويحشوها تبئنا ويطوف بها جنوده شوارع، وحارات، وأزقة، وعطفات القاهرة قبل أن يزيَّن بها بوابة قصره.

عاد مرة أخرى يقلب صفحات كتاب عن النجوم والفلك، كان يقرأ فيه قبل قليل، لكن انشغال باله منعه من أن يستكمل القراءة، طوى الكتاب، وعاد مرة أخرى لنرجيلته، دقائق ودخل عليه حاجبه يستأذنه؛ يخبره بأن ناجي الشرباصي ينتظر الإذن بالدخول، أشار له بالسماح، لحظات ومثُلَّ أمامه وانحنى في احترامٍ شديد، وقبل طرف ثوبه، ووقف في خشوعٍ ناظرًا للأرض، نظر الألفي وتبتسم وسائله في ألفة:

- هل كل شيء جاهز؟

لم يرفع التاجر عينيه وهو يجيب:

- نعم يا سيد.

- هل تعتقد بأن الكميات كافية؟

- بالطبع يا جناب البك، لقد وضعْت بالمخازن غلال، وسمن، وعسل، وسكر يكفون ما يقرب العام ويزيد.

ابتسم في رضا وهو يردد:

- عظيم، عظيم.

اطمئنَّ ناجي عندما لمح بطرف عينه ابتسامة البك، عاد الألفي لنرجيلته المطعمية بالجواهر، سحب منها نفساً عميقاً، وتعارك

الدخان والماء داخل زجاجها البلوري، نفث دخانها في الهواء، بعد أن تأكد من أن صدره قد فرغ تماماً من الدخان، عاد للحديث مرة أخرى:

- هل أحضرت الفواتير؟

ركع على ركبته اليمنى، فانحنى ساقه اليسرى خلفه، وهو يمد يده ببعض الأوراق نحو البك، وهو يقول بصوت خافت:

- خيرك سابق يا جناب البك.

التقط الأوراق من يديه ووقع عليها دون أن يقرأ ما فيها، أعادها إليه، وأشار له بالانصراف، خرج البائع فرحاً بصفقته، هذا هو الأمير المملوكي الوحيد، الذي يدفع ثمن البضاعة، التي يترك للناجر تثمينها، لا ينظر في الفواتير ويعتبرها قللاً قيمة أن ينحط لهذا المستوى.

حقاً إله تاجر محظوظ؛ لأنّه حظي بثقة الألفي بك، يحسده زملاؤه التجار ومنافسوه، سعوا كثيراً لإفساد صفقاته، ودائماً ما كان الفشل حليفهم، ليس لمهارته أو لحسن بضاعته، أو لتواضع أسعاره، فكلّ شيء بثمن، الكثير من الإكراميات دفعها مسبقاً لرجال البك، المسؤولين عن المؤن، لا يهم فكلّ شيء قد أضيف على ثمن البضائع التي وردها، والأرباح وفيرة دائماً، وخصوصاً هذا الموسم، فطلبات الأمير هذا العام أضعاف مضاعفة عمّا يطلبها كلّ مرة، رجاله في

ازدياد، وقد تعدوا الألف بقليلٍ، يوفر لهم قُوَّتهم وملبسهم ويُرزق
الكثير منهم، لولاية مصر بريق خاص، ولها أيضًا ثمن، ولـي المكاسب
المضاعفة، هكذا حدث الشرباصي نفسه قبل مغادرة ديوان الألفي.

وقف الألفي على قدميه، واضعًا يده خلف ظهره، قطع الديوان
ذهبًا وإيابًا، الأمور تسير نسبياً كما يرجو، المؤن توفرت والرجال
ازداد عددهم، إنه الآن أقوى من محمد علي نفسه، فذاك اللبناني
لا يزيد عنه شيئاً إلا الشرعية، وقرباً سينزعها عنه ويعزّيه، هو الآن
الأكثر عدداً وعدة، عليه فقط أن يطمئن على جاهزية رجاله، وبعدها
ستكون نهاية هذا المتطرف قد بدأت.

إذا حقق رجاله انتصاراً اليوم في معركتهم في جزيرة الهواء؛
فسيطمئن قلبه، لقد أرسل خير جنوده وعربانه المخلصين، هو لا
تقلقه النتيجة، فالنصر شبه محسوم، بالرغم من أنه لا يأمن مكر
ذلك الثعلب.

في انتظار أي خبر عن معركته، التي دبرها، كان قد سيطر
القلق على البك، هي معركة ليست ذات شأن، وتكمّن أهميتها
بأنّها أول اختبار عملي لقواته ضدّ قوات نائب السلطان الجديد،
في حال انتصروا؛ سيكون له الحق في مخاطبة شيخ الأزهر، كما
أنّها ستكون رسالة واضحة لحليفته إنجلترا بأنّ ثقتهم فيه في
 محلها.

في قلب هذه الدوامة الفكرية سمع وقع سنابك خيل تقترب
مسرعة، لحظات ودَّوتُ الطلقات النارية في المكان بشكل عشوائي،
خرج من ديوانه يستفسر عن الأمر؛ فأجابه أحد خدمه بأنَّ واحداً
من عربان الشرقيَّة قد عاد من المعركة، ويبدو أنَّه يطلق النيران
احتفالاً بخبر سارٍ.

عاد لديوانه، وبسمة مستترة تداعب شفتيه في خجلٍ، جلس
فيه متظاهراً بعدم الاكتتراث، ثوانٍ قليلة وانحنى سلمان الطحاوي
بحجمه الطويل النحيف، وأنفه الدقيق المقوس والذي يشبه منقار
الصقر، ولحيته الطويلة الكثة في احترام واضح أمام أميره، نظر إليه
وقطب بين حاجبيه وسألَه:

- هل أنت من كان يطلق النار؟

- نعم يا مولاي الأمير.

- ولم؟

- أبشِّرك بالنصر على جنود اللبناني.

- أحقاً ما تقول؟

- نعم.

ابتسم الألقي في ثقة وهو يهز رأسه في خيلاء؛ وأشار للطحاوي
أن يجلس إلى يمينه، جلس بجواره واستكمل حديثه:

- لقد قتلنا «كوريوسف» يا مولاي.

اعتدل في جلسته، ونظر باهتمام لمحديثه، والدهشة تملأ محياه:

- أصدقني القول يا رجل .

- أقسم لك أن هذا ما حدث، لقد رأيته بعيني صريعا، ترجلت
من على فرسه بعد أن فرجيشه هاربا، وتأكدت أنه فارق الحياة.

- لماذا لم تحضر رأسه؟

- سيحضرونها بكل تأكيد.

كان الألقي أن يقفز من الفرح، لم ينتصر رجاله فقط، بل تمكنا
من الفتك بوحد من كبار قادة المتطفل، ذي اللحية الحمراء، صفق
بيده أمراً رجاله بأن يحضرروا الشربات، والحلوى، والنُّقل للطحاوي.

طاحت يد الطحاوي بين الأطباق، وهو يلتهم ما قدم له
بشراهة، نظر نحو أميره، وتذكّر عندما كان ذاك الرجل، الذي على
يساره كاشف الشرقية، قبض عليه، وكبله بالحديد أسيراً هو وأولاد
عمومته، وقتئذ اعتبرهم الأمير خارجين عن القانون، صلبهم على
مفترق الطرق، كواهم بالنار، ركع على ركبتيه أمامه، يتسله أنْ

يعقو عنه وعن أولاد عمومته، رق قلبه على البقية، مات من مات من التعذيب، وأمّا من بقي منهم فقد أذعن له دون نقاش، الآن هم من رجاله، الذين يساندونه وهو لا يبخل عليهم بالعطاء.

أثبتوا أكثر من مرّة حبّهم وإخلاصهم له، أخفوه عن أعين الفرنسيين أكثر من مرّة، حاربوا معه ضدّهم، والآن يجلس إلى يمينه يتلقى منه كُلّ علامات وإشارات الود والحبور، بعد أن هدده بالقتل في يوم من الأيام.

(9)

بطل من ألف ليلة وليلة

ترئَّن القصر الصغير، وما حوله ابتهاجاً بالنصر، غُلِّقت الأعلام على أركانه، وملايت القناديلُ الطريقَ، حتى بابه الرئيسي، فُرشت الأرض بسجاد فاخرٍ، وتراسَّت على جانبي الطريق فرق الموسيقى الشعبية، وفرقة موسيقى عسكرية على غرار الفرق العسكرية الإنجليزية، أعجبت الموسيقى العسكرية - بطبعولها، وألات النفح - الألفي وهو في زيارته لإنجلترا، أعجبه أيضاً نظامهم العسكري، الذي لفت انتباذه كثيراً، مشهد الجنود وتحركهم في صفوف منتظمة أثار دهشته، تدريباتهم الدؤوبة، جديتهم، إصرارهم، جعله يحلم بجيش مثل هذا، عقد العزم على أن يطبق هذا النظام على جيشه الصغير، نجح في أشياء لكنه أخفق في الكثير.

تحول القصر وحديقته وما حولها إلى أشبه ما يكون بعرس، أو إحتفال كبير لولي من أولياء الله الصالحين، فلم يكن الغرض من

كل هذه الزينة الاحتفال بانتصار أتباع الألفي، وقتلهم «كوريوسف» فقط، بل كان هناك زائر مهم سيصل قريباً للمرة الثانية على التوالي، عند زيارته السابقة لم يهتم صاحب القصر كثيراً بتزيينه كما هو الآن، لكن بعد هزيمته لجند الوالي، فعليه أن يستغل هذا الحدث، وإبرازه لخلفاء اليوم، ومشاركته الحكم غداً.

جلس الألفي في صدر ديوانه بملابس المزركشة الراهية، تعبق المكان برائحة البخور الطيبة، تدلّى سيفه الطويل، بمقبضه الذهبي المزين بالجوادر إلى جانبه، وهو في انتظار ضيفه؛ القنصل الإنجليزي في مصر، نبهت دقات الطبول صاحب الديوان بوصول ضيفه؛ فوقف، واقترب من باب الديوان للترحيب به، هكذا كانوا يحتفون به في بلادهم، وعليه أن يرد لهم كرم ضيافتهم.

لحظات وامتلاء الديوان برجال من مختلف الأصناف، وعلى رأسهم القنصل، بربطة عنقه الزرقاء، التي انشغل رجال الألفي بالتفكير في فائدتها، جلس القنصل إلى يمين الأمير المصري بوجه بشوش، سعيد بحسن استقبال الأمير له، على مقربة منهمما جلس مترجم، حلقة وصل بينهما، رغم سفر الألفي إلى إنجلترا ومعيشته هناك أكثر من عام، إلا أنه لم يتعلم إلا القليل من كلمات الترحيب، التي سرعان ما انتهت، سأله القنصل الإنجليزي:

- وماذا تنوي أن تفعل بعد انتصارك على جنود الباشا؟

- سنتكلم في هذه الأمور بعد العشاء، سفركم طويل ولا بد أنكم جائعون الآن.

- أشكرك سيدي الأمير، لكنك تعرف جيداً أنني لا أستطيع تناول طعامكم؛ هذه أوامر الأطباء.

يعرف الأمير تمام المعرفة أن القنصل لا يقول الحقيقة، كل ما هنالك أنه لا يستطيع الطعام المصري، وأنه رغم طول مدة إقامته في مصر لم يعتد على عاداتهم الغذائية، تذكر الألفي أيامه في قصور لندن؛ كيف وفروا له كل ما يتمناه، وكأنه يعيش في قصره في القاهرة، ذلك القصر، الذي لم يستمتع به أكثر من أسبوعين وبضعة أيام، ليحتله «بونابرت» الكافر، و يجعله مقراً لحكمه، لا عائد من البكاء على اللبن المسكوب، فقرباً وبمساعدة هذا الرجل وملكه وجشه سيعود للقاهرة، ويحكمها من القلعة، ويسترد قصره المنهوب، نظر نحو أحد رجاله وتساءل في حدة:

- طلبت من قبل طباخاً يجيد الطبخ الإفرينجي، أين هو؟

- بحثنا عنه، وأخيراً دلّنا عليه مقبل تاجر الغنم يا مولاي الأمير.

- ومتى سيصل؟

- إنه في الطريق، يوماً أو اثنين بالأكثر ويكون هنا.

نظر الأمير للقنصل وهز رأسه وهو يشير للرجل، الذي كان يكلمه والابتسامة تعلو شفتيه، لم يدرك الألفي بأن المترجم لم يترجم هذا الحديث الجانبي، لم يمنع هذا القنصل من مشاركته الابتسام، هز رأسه دليلاً على الرضا، وهو يشير صوب تابع الأمير.

عاد المُترجم مرة أخرى لمزاولة عمله، بعد أن أعاد القنصل سؤاله الأخير، كانت إجابة الألفي حادة وقوية:

- سنزحف نحو القاهرة بكل تأكيد، وسيكون انتصارنا القريب سبباً قوياً لجمع أمراء مصر حولنا.

- لو اجتمعت كلمتكم أنت ورفاقك الأمراء؛ ستكونون القوة الأكبر في المحروسة، كما أن إنجلترا لن تترككم، سترسل تجريدة تقف إلى جانبكم.

- هذا لا يكفي.

- ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!

- السلطان؛ لو لم نكسِبَ السلطان والباب العالي في صُفْنَا؛ فكل ما نقوم به سيذهب هباءً.

تعالت ضحكة القنصل الإنجليزي وهو يربت على كتف الأمير سعيداً بذكائه:

- اطمئن، لم نغفل عن هذا، كلّ ما في الأمر أنّ خورشيد باشا ما زال سجين القلعة حتى الآن، اطمئن فنحن لا نترك شيئاً للظروف.

هزّ الألفي رأسه، وأمر بمدّ السماط للضيوف، لحظات وانتقل الجميع لصالّة كبيرة بها موائد متوسطة الارتفاع، رصت عليها كلّ أنواع الطعام، في صدر الصالّة جلس الأمير، والقنصل، ومترجمه، وأمامهم طبق كبير من الفاكهة، تناول الألفي بعضًا منها، وعرضها على القنصل، الذي قبلها بودّ، والابتسامة لم تفارق وجهيهما.

بعد أن تناولوا بعض حبات الفاكهة، وقفّت الجواري الحسان بالأباريق، ليغسلوا أيديهم، هذا هو التقليد الوحيد الذي يؤثّر كثيراً في القنصل الإنجليزي، شعر وقتها وكأنّه بطل من أبطال ألف ليلة وليلة، غسل يديه مع أنها لم تتسع من طعامه، تبع الألفي، وعينه معلقة بتلك الجارحة الجورجية، التي كانت تصبّ له الماء منذ قليل.

عادا إلى الديوان حيث أطباق الحلوي في انتظارهما، اعتذر القنصل عن الحلويات، أخرج غليونه وحشاه بالتبع وأشعّله، انشغل الألفي بتدخين نرجيلته، نفث القنصل الدخان باتجاه اليمين بعيداً عن الأمير الجالس إلى يساره، نظر إليه وسأله بخبث بريطاني:

- دائمًا تصف الفرنسيين بالكفرة، وماذا عنا نحن الإنجليز؟

تردد المُترجم الذي جلس إلى يسار الأمير، أشار القنصل إليه بأن يترجم ما قاله، لم ينظر الألفي للمترجم، فقط نظر إلى السقف وهو ينفث دخان نرجيلته بعد تردد لم يطل، ثرجم السؤال، نظر الأمير نحو ضيفه وابتسمته تضيء وجهه وأجاب:

- أنا أراكم أهل عهدي، نصاري، ملوككم هو رئيس كنيستكم، وهو حامي الصليب، على نقىض أولئك الفرنسيين الكفار، الذين لا يعتقدون في الدين، هم يؤمنون بشعارات جوفاء كالحرية، والإخاء، والعدل، لكن كيف سيتحقق كل ذلك إذا ابتعدوا عن الدين؟!

أعجبت الإجابة القنصل، وانفتحت شهيته ليسأل مرة أخرى:

- وماذا عن مسيحيي مصر؟

- ماذا عنهم؟

- هل هم مثلنا؟

- لا، هم مصريون، يمارسون طقوسهم بحرية.

- رغم كل هذه التجاوزات التي تحدث في حقهم.

- عندما تحدث تجاوزات فهي تكون في حق الجميع دون استثناء المسلمين والمسيحيين واليهود، أعلم أن المصريين عانوا الكثير منا نحن المماليك، ومن الأتراك، ولقد حان الوقت لأن يؤمنوا

ويعيشوا تلك الشعارات، التي ينادي بها الكفار، تحت مظلة حكمنا الإسلامي.

- وهل تتعهد بحرية المسيحيين؟

. لا.

أفزعت الإجابة القنصل، جحظت عيناه حتى كادت أن تزيح نظارته من على أنفه، واصل الألفي حديثه في تؤدة:

- بل أتعهد بحرية كل المصريين.

خرجت الكلمات دافئة من صدر الأمير مغلفة بالصدق، تشتم فيها رائحة إخلاص النية، رغم تلك الابتسamas الخبيثة التي ظهرت فجأة على وجوه أتباع البك، وقف القنصل مستأذنًا في الانصراف، اعتدل الألفي في جلسته وصافحه، متمنيا له سفراً مريحاً، واعداً إياه بأنّ الزيارة القادمة سيجد على سماطه كلّ ما يشهيه من الطعام الأوروبي الفاخر.

(10)

الحَمَّام

أمام الواجهة البيضاء المزركشة بخطوط حمراء متعرجة، وقف
أحمد بصحبة عز الدين، قبض عز على رسلح أحمد بقوٍة، نظر إليه
والقسوة تلمع في عينيه، أشار له بسبابته مخذداً، وبإبهام يديه
الأخرى سحبها على عنقه، هرّ رأسه في إذعانٍ، وانطلق داخلاً من
الباب العمومي.

مز من خلال ممرين ضيقين، الإضاءة الخافتة جعلته لا يرى جيداً
خصوصاً بعد الضوء الباهر، الذي غادره منذ ثوان خارج الحمام،
وقف لبرهة لتعتاد عيناه الضوء الخافت في الداخل.

لحظات واعتدت عيناه الرؤية، انطلق داخلاً صالة واسعة مغطاة
بالحصير، وفي وسطها نافورة ماء بارد، جلس على أول مصطبة
قابلته، وضع رأسه بين ركبتيه وحاول أن يستوعب ما جرى،

لكن دون جدوٍ وذهبٍ محاولاتٍ كلها هباءً، مجردٌ أسئلةٌ تدور في عقله، وتطفو في فضاء رأسه، لا يعرف أيٌ مستقبلٌ ينتظره هو وعائلته، أسئلةٌ كثيرةٌ جالت في خاطره ردّدها بصوتٍ هامس دون أن يصل لأيٍ إجاباتٍ، فجأةً قفز سؤالٌ جعله يقف على قدميه، أين أبوه من كلّ هذا؟ استدار ليخرج من حيث أتي، ركلتان قويتان استقرتا أعلى بطنه كانتا كافيةٌ لمنعه من التفكير مرةً أخرى بمحاولاتٍ الساذجة للهروب من براثن ذاك الضبع، الذي ينتظره بالخارج، أعاداته ملقىً على الأرض، بالقرب من تلك المصطبة، التي كان يجلس عليها، والألم يعتصر معدته، رفع رأسه صوب القبة العالية، التي تعلو النافورة، شعرَ بأنَّ حجم القبة الضخم صغيرٌ جدًا مقارنة بجزعه وخوفه.

خلع كلّ ملابسه، وتسُلِّمَ منشفةً كبيرةً، جزٌ قدميه ليدخل غرفة دافئةً، الأرضية الرخامية البيضاء تشع حرارةً لطيفةً، جلس على المصطبة الوحيدة، وصوت رقرقة المياه في البهو الرئيس للحمام، يتسلل لأذنه محاولاً أنْ يفهِّمه ألاً فائدةً من أيٍ محاولة للهرب أو للفهم، ما بيده حيلة، وعليه أنْ يتبع تعليمات ذاك العز، الذي لم يرِ منه إلا كُلَّ ذُلٍّ وضياعً.

تأمل البهو الرئيس للحمام، وكأنَّه يدخله لأولٍ مَرَّةٍ في حياته، وهو الذي اعتاد دخول مثل هذه الحمامات مرتين على الأقل أسبوعيًّا، الأرضية الرخامية البيضاء، والتي تتقطع في خطوطٍ منتظمةٍ مع

بلاطات رخامية سوداء، البخار ملأ المكان حاجبًا الرؤية، مغطس الماء الساخن بفروعه الأربع، كصليب مائي، القباب الأربع العالية فوق كل فرع، والماء الحار ينسكب منها دون توقف، المصاطب التي تحيط بكل واحد منها، الرجال ممددون فوقها، أو جالسون عليها، وأيدي العاملين بالحمام الدؤوبة تفرك وتدلّك أجسامهم، والبقية جالسون في مغاطس المياه يستمتعون بحرارتها.

العرق الغزير المناسب من جسده قلل كثيراً من إحساسه بحرارة المكان، وسط هذه الغيمة البيضاء، اصطدم به أحد العاملين بالحمام؛ كاد أن يسقط في الماء، أمسكه العامل بقوة، لحظات وكان ممدداً على أحد المصاطب، مستسلماً ليد البلان وهو يكتس چلده برفق، صوت طقطقة مفاصله أشعرته بلذة غريبة، عاد بذاكرته لطفولته؛ كل يوم جمعة يصطحبه أبوه إلى حمام شبيه بهذا، كان دائم الهرب من عملية الطقطقة؛ مثلت له عبئاً كبيراً، والكثير من الألم، لكنه الآن لا يشعر بأيّ ألم، وكيف له أن يشعر بهذا، وفي قلبه أضعاف مضاعفة مما لو جلدوه ألف جلدة؟!

تسليم عامل آخر، فرك جسده بليفة خشنة، تفتلت أتربة تراكمت على جسده الأسمر أثناء رحلته المشئومة إلى طانتدا، وعودته منها، هل هناك من يستطيع أن يقتل حزنه لخيوط رفيعة، ويغسله ويخلصه منها، ويحولها إلى فرح مرة أخرى؟!

انتهى من حمامه وعاد للغرفة الدافئة مرة أخرى، جلس يستريح وأتى له الراحة، أو من يدله عليها ويعطيه نصف عمره بالمقابل، القلق ينهمش في نفسه كوحش جائع، من أسبوع وعشرأخيراً على فريسة سهلة، تشعـب نـهمـهـ الذي لا حدودـ لـهـ.

خرج من الحمام، ولم يجد «عِزّاً» أو جنوده في انتظاره، نظر حوله تأكـدـ أنـ لاـ أحدـ هـنـاكـ، أطلق ساقـيهـ منـطلـقاـ بـعيـداـ عنـ الحـمـامـ، ماـ إنـ وـصـلـ لـنـهاـيـةـ الشـارـعـ حتـىـ وجـدهـ رـاكـبـاـ حـصـانـهـ العـالـيـ، وـحـولـهـ جـنـوـدـهـ وـاقـفـينـ فيـ اـنـظـارـهـ، وـبـسـمـةـ عـابـثـةـ عـلـىـ شـفـاهـهـمـ، تـوقـفـ وـنـظـرـ خـلـفـهـ، تـمـنـىـ لـوـأـنـهـ جـرـىـ إـلـىـ النـاحـيـةـ الـأـخـرـىـ مـنـ الشـارـعـ، تـرـجـلـ عـزـ، رـبـتـ عـلـىـ كـتـفـهـ وـقـالـ لـهـ سـاخـراـ:

- لو جـرـيتـ إـلـىـ الجـهـةـ الـأـخـرـىـ كـنـتـ سـتـجـدـنـيـ هـنـاكـ أـيـضاـ، أـخـبـرـتـكـ مـنـ قـبـلـ أـنـكـ لـنـ تـمـكـنـ مـنـ الـهـرـبـ، وـإـنـ اـسـطـعـتـ، فـمـاـ عـلـيـكـ إـلـاـ أـنـ تـنـسـىـ أـمـانـتـكـ، التـيـ اـسـتـوـدـعـتـهـ عـنـدـيـ.

لم يستودعه أي أمانة، بل خطفـهمـ، وـيـدـعـيـ أـنـهـمـ فيـ الحـفـظـ والـصـونـ، وـكـمـاـ لـاـ يـسـتـطـعـ الـهـرـبـ لـاـ يـمـكـنـهـ تـكـذـيـبـهـ، أـطـرـقـ رـأـسـهـ ذـلـاـ وـهـوـ يـحـدـثـهـ:

- لم أـكـنـ أـحـاـولـ الـهـرـبـ، كـنـتـ أـبـحـثـ عـنـكـ.

ربـتـ عـزـ مـرـةـ ثـانـيـةـ عـلـىـ كـتـفـهـ، وـسـلـمـهـ جـوـادـاـ أـسـوـدـ ضـخـمـاـ، مـسـكـ لـجـامـهـ فـيـ حـيـرـةـ، وـهـوـ يـتـلـقـىـ التـعـلـيمـاتـ الـأـخـيـرـةـ:

- ستنطلق نحو الفيوم، على الطريق، ستتجد جارك، الذي أوقعك في أيدينا من قبل، سيصطحبك لقصر الألفي، هل سمعت عنه من قبل؟

حدّث نفسه، وصدى صوته يجلجل داخله: (أوّلعني! ما أنا إلا جرذ صغير في قبضة قط صحراوي موغل في التوحش، يلهو بي قبل أن يتهمني، الويل لك يا «مُقبل» عندما ألقاك، لن أُبقي منك قطعة لحم صالحة للدفن). ماجت نفسه بالغضب كبركان أوشك على الانفجار، حمم الكراهية تسري في عروقه، نيران الانتقام أخذت من قلبه موقداً، دخان الغضب احتل صدره كمرجل أحكم غلقه، وترك على النار لأسابيع، لكن هناك من يقف بجواره وينتظر إجابة على سؤاله، رفع رأسه قليلاً محاولاً رؤية وجه عز قبل أن يجيب:

- بالتأكيد يا سيدي، ومن في بر مصر كلها لم يسمع به!

- ماذا تعرف عنه؟

- الكثير.. طارد الفرنسيين في كلٍّ شِبرٍ من أرض المحروسة، قتل منهم عدداً لا يستهان به، يقولون: إنه يريد حكم مصر...

قاطعه عز في حدّه:

- وهل تعتقد أنّ هذا يحق له؟

استشعر أحمد الغضب في سؤاله، لم يعطه فرصة ليجيب،
وانطلق في حديثه:

- هل تعلم أنه يستعين بالإنجليز الكفار ليعتلي عرش مصر؟ ماذا
يستحق من ينتظر العون من أهل الكفر والضلال؟

- الموت.

- وهذا دورك يا بطل.

- أنا؟!

- نعم أنت، هذا تكليف من البasha، وسيكافئك عليه بعد أن
تعود.

- ولكنني لا أستطيع أن أستعمل السلاح، ولا أجيد ركوب الخيل
ضحك عز حتى كاد أن يقع على قفاه، تمالك نفسه، وعاد لحديثه
الجاد:

- لا تقلق سيدرك أحد جنودي على امتطاء الخيل.

- وماذا عن السلاح؟

عاد عز للضحك بشكل هستيري، تمالك نفسه وعاد لحديثه:
- لا سلاح لمصري، هل جننت؟!

- كيف سأقتله إذا؟

- عندما تقابل مقبل؛ سيخبرك بكل شيء، سأصطحبك الآن لساحة التدريب، ستذهب للفيوم كما أخبرتك من قبل، ستتجده في انتظارك على الطريق، لا تحتاج لأن أذرك، لا فائدة من الهرب حتى لو تمكنت، فمصيرك القتل بالخاوزق عند تل العقارب، وأمانتك ستُتابع في سوق النخاسة.

كانت أوامر عز صارمة، وتهديداته واضحة، كما أن محاولات أحمد الفاشلة في الهرب تدفعه لأن ينصلع لكل أوامره دون تفكير، هو لم يمسك سلاحاً من قبل، فكيف له أن يقتل رجلاً، احتار في قتله الفرنسيون، وخدع الأتراك، وتغلب عليهم أكثر من مرة؟! ماذا سيحدث لو لم يتمكن من قتله؟ هل سيجد له عز والباشا العذر؟ ولماذا يريد الباشا قتله؟ لم لا يتفق معه ويرتاح ويريحه؟ ترى ماذا سيحدث له لو انكشف أمره للألفي؟

أسئلة لا إجابات لها، في كل الحالات ينتظره الموت، بطريقة أو بأخرى، لو لم يحالفه الحظ، انطلق في طريقه نحو المجهول، والموت يسيطر على كل تفكيره.

(11)

طرف الثوب

في ليلة مقمرة حجب السحاب ضياءها، عبروا ممراً عميقاً مكسوا بالعشب المحملي، تعانقت من فوقه أغصان أشجار العنبر، حاجبة بقايا ضوء القمر الفضي، المتسلل من بين نتف السحاب، غافت السحب للوصول لوجهه أنهكها طول السفر، وصلوا تحت جنح الليل، يقودهم أحد الآغوات الغلاظ، عند ساتر الحرير، رفع الآغا ستار، وأشار لهم بالدخول.

تقدمت لا زار نحو الضوء المنبعث من داخل الحرملك، وقفت مشدوهة تنظر إلى الثريات المتندلية من السقف المزين بخطوط متداخلة متشابكة في وحدات مكررة، دفعها الآغا برفق لتفسح الطريق لرفيقاتها، توقفت بعد خطوة أخرى، وهي تتأمل البسط الحريرية بألوانها البهيجية، والمرصوصة بنظام بديع على أرضية الغرفة، دفعها مرة أخرى، فتقدمت لخطواتٍ، وتعلقت عيناهما

بالستائر بلونها الأخضر بدرجاته المختلفة، والتي غطّت النوافذ المرتفعة، تمنّت لو أنها امتلكت نصف واحدة من تلك الستائر الكثيرة؛ لتمكّنت من حياكة فستان رائع لابنتها عائشة، دفعها الأغا للمرة الأخيرة، كادت على إثراها أن تسقط على الأرض في هذه المرة، لحظات وكانت فاطمة وأمها تنظران في دهشة إلى ما أثار دهشة رفيقتهما من قبل.

توقفت عائشة بالباب رافضة الدخول، وضع الأغا يديه على ظهرها ليدفعها، قبل أن يتمكن من ذلك؛ كانت الشتايم تنهال عليه كرمال عاصفة، هبت فجأة في صحراء لا حدود لها، كيف تجرأ أن يضع يديه عليها؟! صراخها أفاق أمها، وأختها، وبنات خالتها من تأملاتهن لألوان الحيطان، لم ينبه صوتها العالي أقاربها فقط، لكنه استدعاى بعض الحراس من داخل الحرملك على وجه السرعة، أحاطوا بهم وقد أشهروا سيوفهم، ووضعوها على أعناقهن، ليصمتن جميعاً وقد خلع الهلع قلوبهن.

في صدر القاعة، وفي أكبر المجالس المنتشرة، وعلى أعلى مرتبة، جلست «جلفدان هانم»، وقف الجميع أمامها في صمت تامٌ، نظرت نحوهن بامتعاضٍ، وأقفلت أنفها، وأشارت لهن بالانصراف.

دفعهنَّ الأغوات خارج القاعة في اتجاه باب ضيقٍ إلى يسار القاعة، ممر ضيق خافت الضوء مسيئ يتقدمهنَّ أحد الأغوات، قادهنَّ باتجاه درجات قليلة، نزلنها ليجدن دهليزاً لا يزيد اتساعه

عن نصف المتر، على جانبي الدهليز غرف أبوابها خشبية سميكة، فتح الآغا غرفة لها باب منخفض، دخلن دون أن يتبسن ببنت شفه، أغلق الآغا الباب ورحل تاركا إياهن في غرفة لا يتعدى طولها مترين، ويقل عرضها عن ذلك قليلاً.

على أرض الغرفة الخالية تماماً من الأثاث تجمعن بجوار بعضهن، تسلل ضوء القمر عبر قضبان شباكها المرتفع الضيق، انعكست أشعته الفضية على أجسادهن المتعبة، فحولهن إلى تماثيل من شمع لا روح فيها، اقتربت فاطمة من عائشة وهمست لها متسائلة:

- لماذا أمسكت العجوز أنفها عندما اقتربنا منها؟

نظرت عائشة إليها بنظرة حادة، كادت أن تخلع قلبها من صدرها، قررت فاطمة الصمت، لكن بعد لحظات اقتربت منها أكثر، وهمست لها:

- شمّيني، هل رأحتي كريهة؟

دفعتها عائشة بقوة بعيداً عنها وهبت واقفة في وسط الغرفة وبدأت في الصياح:

- عن أي رائحة تتحدثين أيتها البلياء؟ ألم تشتمي رائحة الذل عندما عرضونا في سوق النخاسة طوال النهار؟ ألم تصل لأنفك الغبي هذا رائحة المهانة عندما عاملونا كسبايا ونحن الحرائر؟ من

فيَكُنْ شَعْرَتْ بِالْغَثْيَانِ وَالرَّجَالِ يَقْلِبُونَ فِينَا كِبْضَاعَةَ رَخِيْصَةً؟ أَنَا لَنْ
أَقْبَلَ بِهَذَا الْذَّلَّ أَبَدًا.

اندفعت عائشة نحو الباب، ودقّت عليه بعنف، وهي تصيح على
الحارس:

- أين اختفيت أيها الأغا الفاقد لرجولتك؟ افتح لنا لنخرج، نريد
أن نعود لديارنا، افتح أيها الخسي.

لحظات وكان صوت السياط في الخارج يشق سكون الدهاليز
المظلم، وصوت الحارس الآتي من أعماق القهر يردد مهدداً:

- نَمْنُ وَإِلَّا لَنْ تَرِئَ النَّهَارَ أَحْيَاءً، السَّيْدَةُ تَعْامِلُكُنْ عَلَى أَنْكَنْ
ضِيوفَهَا حَتَّى الْآنَ، حَذَارٍ مِنْ أَنْ يَنْقُصَ صَبْرَهَا قِيدَ أَنْمَلَة.

رغم أنّ صوت الحارس رفيع خالٍ من أي صفات الرجوله؛ لكنه
كان ممزوجاً بغضب السياط، وهذا كافٍ بأن يرهب كلّ أذن وصل
إليها، شدت للا زار ابنتهما وأجلستها بجانبها، وهي تحاول أن تُهْدِي
من غضبها، الذي انقلب إلى خوفٍ بسبب تهديد الحارس، وضعت
عائشة رأسها على صدر أمها، وانخرطت في بكاء حارٍ، علا عويل
نفيسة وهي تنادي على ابنها، الذي فقد هنّ وفقدنه، خفت صوت
البكاء والعويل تدريجياً، انتظم نفس الأربعة، وكِدْنَ أَنْ يَسْقُطُنَ فِي
بئر النوم، لو لا أصوات جَلَبة اقتحمت الغرفة، فزعت النساء، ووقفن
يحتضن بعضهن، محاولات طمأنة الآخريات، والاطمئنان بهن.

تعالت الجلبة، وكأنّ شخصاً ما يطرق الحديد الموضوع على الشباك المرتفع بقضيب معدني، ثم يسمع صوت وقع أقدام آتيا من الدهليز، ثم طرقات على الباب، وبعدها تعود الطرقات على حديد الشباك.

سيطر الخوف عليهنّ، بدا لهنّ أنّ قبيلة من العفاريت تسكن المكان، وهنّ قد احتللن مسكنها، وأصحاب المكان وسكنه لا يريدون شريك، انكمشن على أنفسهن، ورددن ما يحفظن من قصار سور القرآن، لكن هيهات فلم ينته رعبهن، ولم يُعد لهنّ الهدوء كذلك.

بعد الفجر بقليل توقفت الضوضاء، وانفتح باب الغرفة، نبه صرير الباب النسوة للباب المفتوح نصفه، قفزن هاربات خارجات من سجنن متجنبات لعنات الجن، هكذا قضين ليتلهن الأولى ما بين رجاء ورعب وسهام دعاء بأن ينجيهم الله من يد ساكن المكان.

قادهن أغا شرّعب لحمام القصر، وقف خارجه؛ تقدم النسوة الأربعه لداخله بعد ساعتين خرجن في ملابس لم يخطر ببالهنّ أنهن سيرتدنها يوماً، على رؤوسهن طرابيش زاهية اللون، ملفوف حولها مناديل غامقة مثبت عليها من الجهة اليمنى مشابك فضية محلاًّ بعض الفصوص الزجاجية البراقة، أما شرابية الطربوش كانت من الحرير الأزرق، والذي تجمع في الجهة اليسرى من الرأس.

ارتدى الفتاتان صدرىتين طويتين، وسروالين من قماش منقوش عليهما أزهاراً كبيرة ملونة، على وسطهما شدّا شالين من الكشمير المقصب، أظهر الحمام جمال بشرتهن البيضاء المشربة بالحمرة، تهادت السيدتان في عباءتين فضفاضتين من الموسيلين، مشقوقة من الجانبين، تحتهما سروالان من الحرير الأحمر، على وسطهما شال من الحرير زاهي الألوان، معقوص من الجانب الأيسر، منسدل من الجانب الأيمن.

أعادهن الحارس لمجلس جلدان هانم، بعد أن أكد عليهن بأن لا يقتربن منها، عليهن الوقف على بعد مترين على الأقل، بعد أن يُظهرن لها فروض الولاء والطاعة.

وقفت جارية تصب الماء على يد جلدان هانم من إبريق ذهبي مطعم ببعض الأحجار الكريمة الزرقاء والحرماء، سلمتها جارية أخرى واقفة بجانيها منشفة مطرزة بخطوط ذهبية على أطرافها، رفعت جارية ثالثة صينية كان عليها بواني إفطار الهانم، حملت جارية رابعة الطست الذهبي، وانصرفن جميعاً، اقتربت نفيسة من الهانم، وقبلت طرف ثوبها كما أخبرهن الحارس، وعادت لتقف خلف النسوة، تقدمت للا زار وقدّمت فروض الولاء والطاعة، تقدّمت بعدها فاطمة، وفعلت كما فعلت خالتها وأمهما، انتظرت الهانم تقدّم عائشة، فتسمرت في مكانها، ووقفت كتمثال لا يتحرك، دفعتها خالتها برفق لتقبّل طرف ثوب الهانم، نظرت عائشة نحوها

وهزّت رأسها رافضة، احمر وجه الهائم من الغضب، صفقَت؛ فمُثُلَ في لحظة حارسان أحدهما يبدو ضعيف النظر، بعيينين ضيقَتِين، والأخر طويل مخيف بعيينين حمراوَين، ذكرتهن بقصصهن الخرافية عن الغول، أشارت لهما نحو المتمردة، قبضا عليها، فحاولت التخلص منهُما وهي تصيح، لا مناص أوامر الهائم كانت حادة وقاطعة:

- لا أريد أن ألمح وجه تلك الشقيقة بعد ذلك، ستبقى في المطبخ حتى تصلكم أوامر أخرى.

سحب الحارسان عائشة وهي مستسلمة لهُما، توسلت لا لا زار الهائم بأن تعفو عن ابنتها بحجَّة أنها ما زالت صغيرة، ولا تدرك ما تفعل، ذرفت الدموع تحت قدميهَا، توسلت الخالة سيدة الحرملك، التي أشارت لهُما بيدها بأن يصمتا، اتكأت على جانبها الأيمن في انتظار نرجيلتها، لحظات وكان المسم المطعم بالأحجار الكريمة بين شفتيها، ابتسمت لهن وهي تنفث الدخان نحوهن، خرجت الكلمات من فمهَا مخلوطة بدخان النرجيلة:

- أنتن ضيوفِي، ستمكثن هنا لأجَلٍ غير معلوم، واجب ضيافتكم لمدة ثلاثة ليال، مرت واحدة وبباقي لكنَّ اثنان، بعدهما ستعملن هنا في الحرملك.

أشارت نحو فاطمة، وسألتها:

- أنتِ يا صغيرتي، ماذا تجيدين؟

ابتسمت نفيسة وهي سعيدة بأن الهاشم نادت ابنتهما بصغرتها،
و قبل أن ترد الصغيرة، بدأت أمها في الكلام:

- إنها ابنتي فاطمة، تجيد...

قاطعتها الهاشم في حدة وبصوت جاف:

- لم أسالك أيتها العجوز الشمطاء، لا أحد ينطق أو يتحرك هنا إلا
بإذن مني، ماذا تتقنين يا صغيرة؟

- سيدتي أنا أجيد الطهي والخبز و...

- لا، هذه أعمال الخرقاء، التي رفضت أن تشرف بتقبيل طرف
ثوبك، هل تجدين شيئاً آخر؟

- نعم يا مولاتي، أجيد الغناء والرقص.

انفرجت أسارير الهاشم، وأشارت لها بمسمى نرجيلتها:

- حقاً! سأسمعك قريباً، لو أعجبني غناوك سأمنحك هدية قيمة،
وأنتما ستقفان على باب الحرملك من الداخل لاستقبال الضيوف،
ستبدآن عملكم بعد انتهاء فترة ضيافتكم، أما أنتِ يا صغيرة
سأسمعك الليلة، والآن يمكنكن الانصراف وتناول فطوركن، لابد أنكن
جائعات.

توقفت نفيسة وفي عينيها رجاء، لاحظت الهاشم ذلك، نظرت نحوها وسألتها:

- ماذا تريدين؟ هل تريدين عملاً أسهلاً من استقبال ضيوفنا؟

- لا سيدتي، لي سؤال وأدعوك الله أن يكون جوابه عندك.

- ما هو؟

- لي ابن اسمه أحمد، هل تعلمين عنه شيئاً؟

- اطمئني، هو بخير، كل ما أعرفه أنه سيعود سالماً بإذن الله، عندما يعود، سيحضر ويأخذكن جميعاً، والآن دعوني أكمل نرجيلتي.

ذهبن خارج المجلس إلى إحدى الغرف المفتوحة عليه، جلسن حول صينية ليأكلن، وهدأت قلوبهن واطمئنن على أحمد ولو مؤقتاً، بينما اشتعلت نار حرقتهن على عائشة، الجوع يقرص بطونهن، والفارق يغص قلوبهن، وسيدة تستمتع بنرجيلتها لا قلب لها ولا تشعر بوجدهن.

(12)

الدرويش

وقف أَحْمَد فوق تلّةٍ من الرمال من على بُعد تَعَالَتْ شُحْبٌ من الأَتْرِيَةِ،
كَلِمَا اقتربَتِ السُّحْبُ، ارتجَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدْمِيهِ، نَظَرَ نَحْوَ الْأَفْقِ الْبَعِيدِ
مِنْتَظِرًا وَصُولَ الْأَلْفِيِّ وَسْطَ جَنُودِهِ، تَأْكُدَ مِنْ سَلاْحِهِ فَرِصَاصَةً وَاحِدَةً لَا بُدَّ
أَنْ تَكُونَ كَافِيَةً لِإِزْهَاءِ مَهْمَتِهِ، عَادَ لِفَرْسِهِ الْأَشْهَبِ، رَبَتْ عَلَى جَبَينِهِ وَمَسَحَ
عَلَى غُرْتَهُ بِرْفَقِهِ، عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْآخِرُ مُسْتَعِدًا لِيَهْرِبُ بِهِ، فَلَوْ تَمْكُنُوا مِنْهُ
لِأَذْاقُوهُ الْعَذَابَ، حَتَّى يَصْبِحَ الْمَوْتُ أَمْنِيَّةً عَزِيزَةً صَعْبَةُ الْمَنَالِ.

رَجَفَ قَلْبُهُ وَجَفَ حَلْقُهُ عِنْدَمَا مَرَّ فِي مَخِيلَتِهِ مَا قَدْ يَحْدُثُ لَهُ إِذَا مَا تَمَكَّنَ
مِنْهُ رِجَالُ الْأَلْفِيِّ، عَادَ النَّاظِرُ لِفَرْسِهِ فَفَكَرَ فِي الْعُودَةِ، تَرَاجَعَ عَلَى الْفَورِ عَنْ تِلْكَ
الْفَكْرَةِ فَعَائِلَتِهِ فِي قَبْضَةِ مَنْ لَا يَرْحُمُ، تَدَاعَتِ الْأَفْكَارُ فِي عَقْلِهِ، لِمَاذَا لَا يَذَهِبُ
وَيَعْتَرِفُ لِلْأَلْفِيِّ بِمَهْمَتِهِ، الَّتِي أَتَى مِنْ أَجْلِهَا؟ وَقَتْهَا سِيسَاعِدُهُ لِاستِرْجَاعِ ذُوِيِّهِ،
تَرَاجَعَ عَنْ فَكْرَتِهِ بِسُرْعَةٍ لِرَبِّمَا قَتَلَهُ الْجُنُودُ قَبْلَ أَنْ يَصُلَ لِسَيِّدِهِمْ؛ أَوْ يَأْمُرَ بِقَتْلِهِ
بَعْدَ أَنْ يَعْرِفَ أَبْعَادَ الْمُؤَامِرَةِ، مَا هُوَ مَصِيرُهُمْ إِذَا حَدَثَ هَذَا؟

مع اقتراب صهيل خيول الألفي، عاد إليه وعيه، تأكّد من أن فرسه في مأمن بعيد عن أعين الجيش القادم، انبطح على الأرض، ثبت بندقيته أمامه وظلّ ساكناً في انتظار مرور هدفه.

طال انتظاره وها هو موعد خلاصه قد اقترب، صوت دبّيب الجيش وهرجه يعلن عن وصوله، انتبهت حواسه وأصبح كلّ شيء واضحاً أمامه، دقائق ويعود بفرسه لعز الدين، سيمنحه البasha عطية كبيرة، سيُبني بيئاً كبيراً، سيتزوج عائشة في أقرب وقت، سيتاجر في إحدى الوكالات الكبيرة، وربما في يوم من الأيام سيكون من أعيان المحروسة، سيجلس مع كبار علماء البلد، سيدعوهم إلى بيته، ويحتفي بهم، وسيكون له حرمك كبير، سينجذب كلّ عام طفلاً وربما طفلين، وستبقى عائشة هي الملكة على عرش مشاعره وسيدة الحرملك.

على حين غرة رفع فرسه ساقيه الأماميتين وصهل، قبل أن ينظر نحوه كان هناك ما يزيد عن خمسة سيف فوقي رقبته، وأقدام كثيرة تعلق ظهره، شعر بوخذ في رقبته، ويد تهزه بقوة، ارتعدت أوصاله، واعتري الخوف قلبه الواجد، أغلق عينيه متظراً السيف أن تقوم بدورها.

فتح عينيه على مهل، وجد لحية طويلة؛ ملابس بالية قذرة، أحد دراويش السيدة نفيسة غرز أظافره في عنقه، وهزه بعنف يوقفه لاقتراض موعد صلاة الفجر، تلفت حوله وهو يلهث، حمد الله على أنه كان مجرد حلم، توافد المصلون إلى ساحة المسجد حيث قرر أن يقضي ليلته؛ تبركاً بها لتحمي في مهمته كما تحمي القاهرة.

تواضاً وهو لا يصدق نفسه بأنه في مأمن من سيوف الألفي، ارتفع صوت المؤذن بتكبيرات الأذان، رفع يديه وهو واقف أمام المحراب يدعو الله بأن ينجيه ويعيده سالماً هو وأهله، سالت الدموع من عينيه وبلل الفرش السنديسي ولسانه لم يتوقف عن الدعاء، هزته يد الدرويش المتعرقة، مسح دموعه ونظر إليه بعينين أجهدهما الرمد اختبأتا خلف حاجبين تهدلا كستارتين تأكلان من شمس الصيف الحارقة، صاح في وجهه:

- قل يا رب، شيء لله يا طاهرة.

هزه الدرويش مرة أخرى وهو ينهره:

- قل يا رب.

- يا رب ما لي سواك، يا رب أنت تعلم ما لا أعلم، وعلمتك بحالٍ يعني عن سؤالي.

خرج الدعاء منه صادقاً مخلوطاً بدموع الرجاء، لا حدود بينه وبين عرش الرحمن، تتمم الدرويش، وذهب بعيداً، وهو يردد:

- شيء لله يا طاهرة، مدد يا آل البيت مدد.

صلّى ركتني السنة، وانخرط في البكاء، وهو ساجد بين يدي خالقه، شعر ب مدى ضعفه، أدرك ضلالته وسط الكون الفسيح، دعا ربها بكلمات لم يشعر بها وهي تخرج من فيه، خرجت من قلب يشعر باليأس، واستبد به الخوف، تذكر أنه لا يقْنط من رحمة الله إلا الكافرون، ولا خوف إلا من رب

العالمين، لم يتوقف سيل دموعه، اعتدل وقرأ التشهد، وسلم وأنهى صلاته، انتظم في الصف، وأدى فرضه، وختم صلاته، وانطلق في طريقه مودعاً السيدة نفيسة خلف ظهره، راجياً أن تكون عوناً له في أيامه القادمة.

ركب فرسه، ونظر نحو حارسة القاهرة، ثم صوب السماء، التي بدأت تلمع قليلاً بضوء النهار، داهمه الوقت، وعليه الإسراع ليعبر النيل، مسح على رقبة حصانه واثقاً بأنه سيصل في موعده، وعلى حين غرة ظهر له الدرويش بعينيه الغائتين، أمسك لجام الفرس بقوة واقفاً أمامه، مانعاً إياه من الانطلاق، سحب أحمد بعنفٍ، تمالك نفسه بشق الأنفس، ليبقى ثابتاً فوق الجواد، أفلت الدرويش للجام، انطلق أحمد بعيداً، من خلفه طارده صياح الدرويش:

- لا تؤذ أحداً، وإن آذوك فإن ربك منتقم، لا تؤذ أحداً، لا تؤذ أحداً.

تلاشى صوت الدرويش، وغاب عن نظره، ابتسم ساخراً من نصيحة الدرويش، الذي لا يعي النار المتقدة في صدره، ولا يدرك مدى الرهبة المسيطرة عليه، الخوف هو وقود القسوة، وقسوة القلوب هي علة كل شرور هذا العالم، نظر أمامه وانحنى محفرًا الحصان ليطوي الأرض طيباً.

ترجّل أمام الميناء، قبض على يده اليسرى، ورفعها للأعلى بمساواة كتفه كما أمره عز الدين أن يفعل، كإشارة متفق عليها، تقدم باتجاهه جنديان، تسلّم أحدهما الحصان، وأخذه بعيداً، قاده الآخر نحو المركب، لم ينبع بأي كلمة، وبقي وجهه عابساً وهكذا كانت التعليمات.

ظهر قرص الشمس على استحياء، انعكس ضياؤه على صفحة النيل، لم يبُد النور مخاوفه، على العكس أظهرها جليّة أمام عينيه، عليه أن ينتقم من جاره الوغد، سيقتله بكل تأكيد، ثم ينطلق نحو أمير المماليك الأكبر، يتسلل إلى فراشه، ويحمد أنفاسه، ويعود للباشا ليتسلم جائزته، وليس ترد عائلته، ولربما وجد بعد ذلك من يدفع له ليفتال الباشا.

على الجانب الآخر من شاطئ النيل، قبض على يده اليمنى ورفعها للأعلى، تقدم منه جندي، مسرعاً أعطاه ملابس جندي مملوكي وسيف، هكذا بدأت الخطة تتضح له، سينتَّنْ في زي جندي من جنود الألفي يغافله ويطعنه، ثم يفرّ مسرعاً للباشا.

قاده الجندي ليس بعيداً عن شاطئ النيل، أعاد له حصانه، وهمس له:

- اركب هذا، واطلِّق له العنان، قبل أن تدخل أول بلدة تمزّ عليها غير ملابسك، وعلّق سيفك، لا تتحدث مع أحد في الطريق، هناك من ينتظرك على الطريق، أنصِّث له، وكنْ مطيناً.

ربت الجندي على عنق الحصان وأضاف:

- اطمئنْ فهو يعرف الطريق.

هزّ أحمد رأسه موافقاً، قفز فوق جواهه، وانطلق تاركاً خلفه الجندي، سار به موازياً لشاطئ النيل، كان هواء الصباح المنعش يداعب بعض خصلات شعره الأسود الناعم، والتي خرجت من تحت غطاء رأسه المزركش،

أنعش الهواء نَسْه قليلاً، عليه أن ينقذ ما يُطلب منه، حتى يستعيد أهله،
جذوة غضبه على مقبل متقدة، حاول أن يحسم أمره، ما زالت رحلته في
 بدايتها، وعليه أن يقرر، هل ينتقم من ذلك الوغد أم لا؟ أم يؤجل هذا حتى
يسترد ما فقده؟

ما زال في أول الطريق، وها هي أكواخ الفلاحين تلوح له من بعيد، تبدو له
كأشباح خرافية مستترة خلف ضباب الصباح، أوقف رفيق سفره وترجل من عليه،
غير ملابسه كما أمر من قبل، نظر في صفحة النيل، هاله ما رأه جندي مملوكي
في كامل هيئته، لو لم يكن يعرف نفسه جيداً لفُر هارباً من وجه هذا الأمير.

تأمل القرية التي لاحت له بعض تفاصيلها من قبل، نخل باسق يحاول
اختراق السماء، ينظر في غرور إلى أبراج الحمام المستكينة في هدوء
تحته، أسراب صغيرة من البط تسعى على طول النيل، درجات حجرية غير
مستوية تنتهي بمصطبة صغيرة مغمورة تحت مياه النيل، بجوارها على
الشاطئ مصلّى صغير مفروش بقش نظيف، ظللت عليه شجرة صفصاف،
كامرأة عجوز تغسل شعرها في مياه النهر المقدس، أكواخ صغيرة متناشرة
كقروه انتشرت على وجه زوجة قبيحة فازداد نفور زوجها منها، المؤس
يبدو واضحاً عليها، كيف تعيش أسرة كاملة مع حيواناتها في مثل هذا
المكان الضيق؟! تبسم عندما تذكر أنه عاش مع عائلته، وحمارهم في منزل
لا يفرق كثيراً عن هذه الأكواخ، كانت رائحة البيت مقرفة، تثير الغثيان،
لكن حبه الشديد لحماره جعله يتغاضى عن أي رائحة، لا بد أن أصحاب
تلك البيوت أيضاً يحبون حيواناتهم، ولا يشعرون باشمئزاز من رائحتها.

سار بفرسه على مهل متأملاً الحقول المكسوة بالخضراء، أرض طيبة
تمنح فلاحها خيراً ثواباً لعملهم ومجهودهم فيها، يناضلون طوال نهارهم
فيها، يكذبون آملين أن يرزقهم الله من حلاله، ويسعون نحو عملهم
بأجسادهم ووجوههم السمراء النحيلة، عيونهم السوداء الغائرة، تنم عن
اعتلال صحتهم وفقر معيشتهم، يجررون خلفهم أبقارهم وجواهيرهم.

لاح لهم الأمير المملوكي من على بعد، يسير بجواهه على مهل، فدبَّ
في قلوبهم الرعب، ثُرى ماذا سيفعل معهم هذا الأمير؟ هل سيسلبهم
حيواناتهم بعد أن يجلد ظهورهم، ولربما يقتل من يقف في طريقه، قد
يهاجم على منزل أحدهم ويغتصب من فيه من النساء، سيسبي بناتهم
ويبيعهن في أسواق النخاسة، أو يضرم النار فيه على من بداخله إذا ما
امتنعوا عنه، احتاروا في أمرهم؛ فرَّ واحد منهم وقفز في النيل راكباً على
ظهر جاموسه مبتعداً عن طريقه، أملاً أنه لم يره، واختبأ أحدهم متسلقاً
شجرة حاملاً عنزته فوق كتفيه، تسمَّر الباقيون على جانبي الطريق يلتئمهم
الهلع كما تلتهم النار الحطب.

(13)

الرمال المتحركة

توقف أحمد عن المسير، ما رأه أعاد لذاكرته ما كان يحدث عندما يهاجم أحد أمراء المماليك وجنوده حارتهم، حيث يدوي العويل والصراخ في كل مكان، ويهرون التجار لغلق محلاتهم، ومن لم يتمكن تصبح بضاعته مباحة، الكل معرض للسلب والنهب والقتل، لا رحمة ولا تهاون فيما أتوا من أجله، لا بد أنهم يشعرون الآن بما شعر به من قبل عندما داهم الجنود حارتهم.

وكز حصانه وانطلق بعيداً، أخذ قليلاً الحيلة خلفه ينظرون إليه وهم في حالة من التعجب، لأنّه لم يهاجمهم، لم ينظر نحوهم، لأنّه لا يستطيع أن ينظر في عيون يملأها الخوف، رغم أنه وبكل تأكيد يتمنى أن يتمتع بهذه النظارات في عين مقبل.

مَرْ في طريقه على العديد من القرى، لم يتوقف أو يبطن
من سرعة حصانه، لا داعي لتكرار ما حدث من قبل، يكفي ما
شعر به أهل محطته الأولى، ظلّ هكذا حتى لاح له بحر من
الرمال الصفراء لا آخر له، اطمئن بأنه لن يزعج أو يخيف أحداً
الآن.

طوال طريقه والفرس يسرع في طي رمال البداء، داهمه
سحب سوداء من ذكريات طفولته، مرت حياته القصيرة أمامه
خيالات، وما ينتظره في مستقبلٍ مبهم الملامح، كرياح
خمسين حجبت الرؤية عنه، طفولة قضى معظمها في عريٍّ تام،
فلم يجد ما يدفنه في برد الشتاء إلا حضن أمه، وغطاءً قدِيماً
خشناً من الصوف، لم يكن هناك ما يحميه من شمس الصيف
الحارقة سوى ظلّ البيوت في الشوارع، لم تمكنه ظروفه من
أن يلتحق بكتاب الحي؛ ليتعلم القراءة والكتابة، وبعض قصار
السور من القرآن، تمنى أن يذهب إلى هناك ولو لمرة واحدة
مع مقبل، الذي يريد قتله الآن، هل يريد ذلك انتقاماً منه لأنّه
تمتع بالقليل من العلم والملابس وأشياء أخرى حُرم هو منها
في طفولته؟ أم لأنّه السبب في ضياع حاضره ومستقبله الآتي؟

أيذهب العمر هباءً؟ أحلام تخدمنا حتى لا نشعر بوطأة مرارة
واقعنا، تخيلات تحول صحاري الحياة مروجاً خضراء، لنصحو
على الحقيقة، درب طويل لن ينتهي مهما أسرعنا، وعمر قصير

مهما طال، لم يجد جواباً وافياً لسؤاله، حقاً إنَّ الإنسان، الذي لم يعيش ماضياً يشُرُّف به، لا حق له في حاضر ينعم به، أو مستقبل يأمل فيه.

التهبت الشمس في السماء، وانعكس ضياؤها وحرارتها على الرمال المحيطة به، كثبان من الرمال تعلو وتهبط حوله، وأحجار كثيبة منتشرة في كلّ مكان، لا شيء يلفت الاهتمام، خصوصاً بعد أن صمَّ الهواء أذنيه، تخيل أنَّ صراخ طفل يصل إلى مسامعه، هل يهذِّي؟! ربما، أو من الجائز أنَّه سراب سمعي تسرُّب إلى نفسه في هذا الفضاء الموحش.

عاد الصراخ يخترق سمعه مرةً أخرى، وليس بسراب أذن، أوقف فرسه وتلفت حوله، فلا شيء إلا الرمال وكثبانها، عاد الصراخ يخترق أذنيه، يأتي من أمامه على اليسار، اتجه نحو الصوت، تخيل أن النداهة هي من تصدر هذا الصوت، تمكَّن الهلع من نفسه، توقف عن المسير، نظر حوله مرةً أخرى، لا شيء لا أحد لا وجود لأيِّ جنس من البشر في هذه الصحراء الشاسعة.

تذَكَّر أوامر الجندي، الفرس يعرف المكان، وسيوصله دون توجيه منه، يجب أن لا يتحدث مع أحد حتى يصل إلى المكان المنتظر، عليه أن يطيع الأوامر حرفيًا حتى يُكمل مهمته، لا يمكنه تجاهل النداء النابع من بين الرمال مهما كانت

العواقب، الصراخ واضح ويستطيع أن يميّزه، إنه صراخ وبكاء حار لطفلٍ، ربما يكون هناك خلف هذه التلّة الرملية المرتفعة، لا ضير أن يذهب ويلقي نظرة، لو لم يجد شيئاً؛ سيترك العنان لفرسه ينطلق حيث يعلم.

ببطءٍ شديدٍ وحذرٍ صعد التلّة، زاد وضوح الصوت، طفل يبكي من الألم، وقف عند قمة التلّة، ونظر، فوجد - ليس ببعيد عنه - طفلاً، مغموراً نصفه السفلي في الرمال، سمع من قبل سيرة عنترة بن شداد حين كادت أن تلتهمه الرمال المتحركة عندما كان يحضر مهر محبوبته عبلة، ستلتهمه الرمال في باطنها إذا ما اقترب، سيعوص فيها حتى يختفي،
الويل لتلك الرمال التي تتبعنا أحياء!

نظر الطفل نحو أحمد بعينين أرهقهما البكاء، وجهٌ صغير سالت الدموع من مقلتيه، فشققت أودية من الطين وسط رمال تعقرت بها وجنته، أشار إليه أن اقترب، ربت على صدره راجياً أن ينقذه، توقف أحمد والدهشة تماماً عينيه، كيف لم تبتلع الرمال هذا الصغير؟ وقتها أدرك أن هذه مجرد رمال عادية، وليس متراكمة، ترجل من على فرسه، واقترب من الصغير، أمسك الطفل بسرواله الفضفاض متوسلاً أن يخرجه من الحفرة المردوم فيها نصفه السفلي.

لم يدرك أحمد حتى الآن سبب دفنه بهذه الطريقة في الرمال، أو الداعي من وجوده في مكان موحش مثل هذا، هل تاه من والديه مثلاً؟ أو ربما تخلف عن قافلة مررت من هذا الطريق، سيسأله بعد أن يخلصه من ورطته، انحنى ليزيل الرمل من حول الطفل، وقبل أن يزيح أول حفنة من الرمل، وجد شيئاً حاداً ينفرز في ظهره، تذكّر حلم ليلة البارحة، هل اكتُشف أمره؟

نظر خلفه، وإذا برجليين من العربان، يضع أحدهما - وهو الأقرب له - سيفه على ظهره، والأخر يقف بعيداً عنه بخطوات ممسكاً بقوسه، وقد شدّه مستعداً لإطلاق سهمٍ موجّه إلى صدره،
بادره صاحب السيف سائلاً:

- ماذا تريد أيها الجندي؟

وضع يده اليسرى على خصره، وباليمني قبض على مقبض سيفه، حاول أن يظهر التماسك، أملاً أن تدفع بذلة الجندية الأذى والشرّ الواضح جلياً في عيون العربان، نظر نحوهما متظاهراً بعدم الاتكتراث، وأجاب وهو يزيح الرمل من حول خصر الطفل:

- منكمَا؟ لا أريد شيء مطلقاً.

- ماذا تريد من هذا الطفل؟

- لا شيء أيضًا، يبدو أنه تائه عن والديه هنا، ولسبب مجهول
دفن في الرمل، حتى خصره كما ترى، سأخرجه وأعيده لأبويه.
- لا شأن لك به، أنا أبوه.

تبسم أحمد متوجهاً قبل أن يسأل:

- ولماذا دفنته هكذا إدأ؟
- لا عليك أنت، نحن أعلم بما نفعل، عليك أن تغادر الآن.

توقف عن إزاحة الرمل من حول الطفل، وهم بالوقوف،
 أمسك الطفل بيديه وهو يبكي قائلاً:

- لا تصدقه، إنه ليس أبي، لقد اختطفاني من أسرتي،
 وأحضراني عند دير بالقرب من هنا، وهناك فعل رجل يرتدي
 السواد شيئاً ما لخصيتي، إنهمما يؤلماني، لا تدعني لهما، وحياة
 النبي لا تتركني هنا.

اندهش أحمد مما سمع، غاص السيف قليلاً في ظهره
 منبهأ إياه أن هناك من يهدده، وأن حياته على المحك، تملّك
 الغضب من صاحب القوس، وكاد أن يفلت سهمه ليستقر في
 صدر المملوك، الذي يحاول تحرير صيدهم، منعته إشارة خفية
 من رفيقه من أن يطلق سهمه، حرك صاحب السيف نصله
 محدثاً قطع صغير ببذلة أحمد وهو يحدثه في هدوء مفتuel:

- اسمع يا هذا، أنت الآن مجرد جندي؛ مملوك صغير، بعد عدة سنوات ستصبح أمير خمسة وربما أمير عشرة، وقتها سيكون لك بيت كبير، ومن المحتمل أن يكون قصراً، ستأتي لنا وتطلب منا بعض الأغوات لحماية الحرملك، سنخطف لك بعض الأطفال، ونخصيهم ليصلحوا لتلك المهمة، المطلوب منك أن تغادر الآن، وتترك لنا هذا الأغا الصغير حتى نبيعه لتاجر كبير في أسيوط، وصدقني إن ذهبتك الآن دون متاعب؛ سُيحسب هذا لك، وربما قمنا بتخفيض في الأسعار عندما تطلب منا أغوات المستقبل، لا فائدة من إثارة المتاعب، سرديك قتيلاً، أو نكتب لك ونحملك أنت الآخر للدير، ونضعك هنا في حفرة أكبر بجانبه.

كانت لغة الأعرابي واضحة، وتهديده صريح، ورغم ملابس أحمد، التي تعطيه الهيبة، مجرد هيئة لمملوك قوي، يبث الخوف في قلوب الفلاحين، هنا الوضع يختلف؛ هذان اللذان في مواجهته هما أسياد الصحراء، وهو لا يجيد استعمال السيف المعلق في خصره، لو قاومهم لنفذوا تهديدهم، الفضول يقتله، ويريد أن يفهم، نظر نحو الأعرابي بجمود غير مكتثر، ثم نحو السيف المغروس في ظهره، وقال وهو ينفض الرمل من يديه:

- لا مانع عندي ولكن هناك شرط وحيد.

- لن نعطيك شيئاً من ثمنه.

- ليس هذا ما أريده.

- ماذا تريد إذا؟

- أن أفهم لماذا دفنتماه في الرمل هكذا؟

- بعد أن ربط الراهب على خصيته فقد هذا المسكين وعيه، كثير من الأطفال يموتون أثناء تلك العملية أو بعدها بقليل، هذا المحظوظ أفاق من غيبوبته وملا الدنيا بصياغه كما سمعت.

- لم تُحب سؤالي بعد.

كاد صبر الإعرابي أن ينفد وهو يجيبه:

- سأجيبك، بعد أن فقد وعيه اعتقدنا أنه مات، أكد الراهب بأنه ما زال حياً، لقد نقلناه إلى هنا ووضعنا نصفه السفلي في الرمل كما ترى، حتى لا يؤذى نفسه ويحلك وجعه، ويكون مصيره الموت بعد أن ينزف دمه، نحن نرافق به وننهتم بحالته كما ترى، هللاً ذهبت الآن؟

- نعم سأذهب، وداعاً.

ربت على كتف الصغير، ومسح رأسه والألم يعتصر قلبه، لا عائد من مقاومته لهذين الأعرابيين، سيفتكان به ويقتلانه دون

شك، ولن يغير هذا من الأمر شيئاً في مصير هذا المسكين،
قفز على فرسه وهو يعاتب نفسه بأنه كان يتمنى ذات يوم أن
يكون لديه حرملك واسعاً، به الكثير من الجواري والأغوات،
ملعونه تلك السعادة المبنية على عذابات الآخرين.

(14)

مقابل

لم ينظر أحمد خلفه فلا يستطيع أن يتخيّل أن يفقد إنسان ما،
غريزة وضعها الله فيه لتستمر الحياة على وجه البسيطة لينتزعها
منه إنسان آخر ليقف الأول حارسًا للثاني على الأبواب وهو يمارس
غريزته بكل وقاحة، لا يمكن أن يكونوا بشراً، لا بد أنهم نوع نادر
من الوحوش، تمكنت من التنكر بإتقانٍ في صورة بشرية، انتزعت
من قلوبهم كلّ معاني الرحمة، وتحولوا إلى حيوانات كاسرة، تتنافس
دون رحمة على أنثى في موسم التزاوج، أطلقت رائحتها لتجذبهم
نحوها، فيقتلون بعضهم البعض.

لم يطل تعجب أحمد كثيراً؛ فهو مثل هذا الطفل، ليس هو وحده من يشبهه، بل كل من يعرفهم لا يختلفون كثيراً عنه، كلهم انتزع منهم شيء ما؛ الأمل في المستقبل، كرامتهم، حريةهم، حتى طموحهم شرق منهم، اغتيلت أحالمهم قبل أن تولد ودفنت الذكريات في موقد اليأس.

لم يعد هناك ما يستحق الحياة، عندما تعيش مكرها كأنك
ميت، تموت فيك الروح، ويبقى الجسد وحده يقاوم القناء.

حارث أفكاره، هل العيب فينا نحن أم في الحكام المتختمين
بالثروات؟ أيجب أن نتغير ونغير من أنفسنا أولاً قبل أن نطلب
تغيير الحكم؟ من أين يجب أن نبدأ؟ لماذا يجب أن نفعل؟ ولماذا؟
وكيف؟ ومتى؟ وأين؟ عشرات الأسئلة انهمرت عليه، وكل الإجابات
ضللت طريقها إليه.

ظل هكذا طوال طريقه، حتى لاح له عن بُعد خيمة صغيرة
منخفضة، بالكاد ترتفع على وجه الأرض، توجه حصانه نحوها ووقف
 أمامها، حاول أحمد أن يحرّك الحصان، عانده، وأبى الحراك، هنا
أدرك أنّ هذا هو المكان المتفق عليه.

ترجل عن فرسه ونظر نحو الخيمة، فلم يجد فيها أحداً، دار
 حولها لا أحد أيضاً، الجمر أمام الخيمة يدل على وجود أحد هم
 بداخلها، أو ربما كان أحدهم موجوداً وانصرف بمجرد سماع وقع
 أقدام الفرس، صفق بيده ليعلن عن قدومه، فما من مجيب، رجع
 نحو فرسه ليركبه، كان قد نسي أن يربطه فهرب بعيداً عنه، ولم يعد
 باستطاعته اللحاق به، جلس متفيئاً بالخيمة، لا يلوي على شيء.

أمسك بعود حطب، وجلس يخط على الرمال ولا يدرى ماذا
 يفعل؟ تمكّن اليأس منه، كان منذ قليل يفكر في سبب ما تعانيه

بلاده، ويبحث عن حلّ لتلك المشكلات العضال، وهو ليس إلا فاشلاً، غفل أن يربط مطيته قبل أن يتعد عنها.

تلفت حوله باحثاً عن أي أثر لصاحب الخيمة، لا شيء إلا الجمر والخيمة الخالية، التي نصب أسفل تلة صغيرة. اقترب من التلة، لاحظ وجود كهف ضيق على جانبها الأيمن، هل فرّ صاحب الخيمة بداخله عندما لمح اقترابه منه؟ وقف على باب الكهف المظلم، فتملّكه الرعب من فكرة دخوله، فقد تكون مغارة لوحش من وحوش الصحراء، أو بها خفافيش ستقلع عينيه من محجريهما، ولن تتركه إلا بالطبل البلدي، وربما تكون مليئة بالثعابين أو العقارب، التي يخشاها كثيراً، وقبل أن يولى الأدبار، إذ بيده تربت على كتفه؛ فقفز مرعوباً وجري يختفي بالخيمة، وكأنّها قلعته التي ستتحميء من الأعداء المحاصرين له، كانت ضحكات مقبل العالية المتواصلة تشق صمت البيداء دون خجل.

تعرف على صوت جاره القديم، فهذا روعه قليلاً، ومع ذلك تضاعف حنقه عليه وغضبه منه أضعافاً مضاعفةً، جلس على الأرض يلتقط أنفاسه بعد أن أحكم قبضة يده على مقبض سيفه، فهو سيقتله الآن لا محالة.

اقرب منه مقبل في تؤدة وثقة، ووقف أمامه ومدّ يديه ليصافحه، حاول أحمد أن يستل سيفه من غمده فقدم مقبل كانت أسبق لتحول بينه وبين ذلك عندما ضغط بها على يديه ليمنعه،

نظر في عينيه نظرة الواثق الشامت، نظرة يشوبها التشفي والانتصار،
وبيطء رفع قدمه وهو يبتسم قائلاً:

- تريد قتلي وأنا أريد لك الخير؟!

- تريد لي الخير فتحطف عائلتي! كيف لي أن أصدق هذا؟!

انحنى مقبل وأخذ السيف من غمده، وعيناه تقدحان شرّاً،
ووضعه على رقبة أحمد، ووخزه بطرفه المدبب، وهو يزفر منتصراً:

- ما رأيك أن أقتلك الآن؟ نعم يمكنني ذلك، وسأواري جثتك خلف
هذه المغارة لتكون عشاء لذئاب الصحراء، هل ترغب في ذلك؟

لم ينطق أحمد ببنت شفه، إحساسه بالفشل سيطر عليه تماماً،
محاول أن يتماسك أمام غريميه، فوقف على قدميه، ما فعله مقبل
كان مبالغتاً ومفاجأة، ناوله السيف في يديه، ووضع طرفه على قلبه،
وصاح فيه:

- كنت تريد أن تقتلني، والآن يمكنك ذلك، لا تتردد يا جاري
العزيز.

خارت قواه وسقط السيف من يده، فتمتى أن يقتله لكنه
يعيش داخل جُبنه، كحشرة تشنقت في طور نموها، سيبقى
داخلها حتى يضعوه في شرنقة بيضاء، قبل أن يصلوا عليه، من
شنقة الجبن إلى شرنقة الموت طريق طويل مملوء بالخزي والعار،

ليته يستطيع، لا يحتاج ذلك لمهارة استخدام السيف، مجرد دفعه ضعيفة وينهي الأمر، قلبه لا يطأوه على هذا، يخاف من لون الدم ورائحته، كما أنه يحتاج إليه بالفعل، بصدق مقبل على الأرض أمام أحمد، ونظر إليه باحترام، ودخل الخيمة، وحفر تحت أحد أعمدتها، فاستخرج لفافة، وعاد بها نحوه، رماها تحت قدمه وهو يأمره:

- اخلع تلك الملابس، فأنت لا تستحق أن يلمس جلدك مثلها، ارتدي هذه الملابس واتبعني، سأنتظرك هناك في الخيمة.

لم يلتفت أحمد نحو جاره القديم، فضلاً للفافة وخلع ملابس الجندي المملوكي، وارتدى ملابس أوشكت أن تكون بالية، وإن كانت نظيفة، لاحقه صوت مقبل من تحت الخيمة:

احضر ملابس الجندي معك.

جمع الملابس والسيف، وحملها وتوجه ليستظل في الخيمة، ابتسم مقبل ساخراً وهو يقول له:

- هذه لا تتناسبك، ما لك أنت ومال شرف العسكرية.

- عن أي شرف تتحدث؟ ما هم إلا لصوص اشتريناهم بأموالنا فتسلطوا علينا.

- هم أسيادك، هم أولاد الناس يا عديم الشجاعة.

- أنت تعلم جيداً لم نسميهم بهذا الاسم.

- لماذا يا حكيم زمانك؟

- لأنهم عديمو النسب، لا نعرف لهم أباً أو عائلة، ولأننا شعب طيب لم نود أن نصدّهم بحقيقة هم يعلمونها جيداً، ويتهربون منها، فأطلقنا عليهم هذا اللقب.

- تبهرني بتحليلاتك، والآن جاء دورك أيها الخاسر.

اعتدل أحمد في جلسته مستشعراً أن لحظات الخطر، التي لم يعتدّها قد داهنته، حاول أن يراوغ علّه يستخرج منه معلومة تزيح الحزن من على قلبه:

- لا دور لي إلا إذا عادت عائلتي لبيتها.

- لا تراوغ يا فتى وإنما ستباح عنهن في بيوت اليسرجيات^٨،
هذا إذا قدر لك أن تعيش.

- لقد كنت أخاً لي، وكنت أعتبرك قدوتي، لماذا تفعل هذا بنا؟

- لأن في هذا ربحاً لي، أقدمك للألفي بك وهو يعتبرها خدمة مني، وأنت في الحقيقة رسول الموت إليه من قبل البasha الجديد، أضرب عصفوريين بحجر واحد، إذا ما ثبت البasha أقدامه في الحكم كنت من

8- بيوت لبيع الجواري والعيبد.

رجاله، وإذا انتصر البك كنت من أتباعه، وصاحب فضل قديم.

- ومع من أنت في الحقيقة؟

- مع الجميع وضدهم في نفس الوقت، هل تتذكر عندما أخذ الأتراك حمير الحارة، وكان من بينهم حمارك؟

- نعم بالطبع.

- أنا من دلّهم على البيوت التي خبّئت فيها الحمير، مقابل أن يتركوا حمارنا، هل فهمت مقصدي؟

علت الدهشة وجه أحمد، وهز رأسه نافياً رافقاً التصديق، أكمل مقبل حدیثه كمعلم يلقي بدرسه على تلميذه.

- أنا كنت أتعامل مع الأتراك والمماليك، وعندما حضر الفرنسيون؛ لم أتردد في التعامل معهم، لست كخادم أو طاهٍ مثلَك، لا، أنا أكبر وأهم من ذلك بكثير.

- ماذا كنت إذًا؟

- كنت عينهم في الأزهر، عندما كاد أبوك أن يفقد حياته، عندما ثار مع من ثار عليهم.

- وما وجه الفائدة من ذلك؟

علت ضحكة مقبل، حتى كاد أن ينقلب على قفاه، استند على ذراعيه خوفاً من الواقع، تمالك نفسه حتى وقف على قدميه:

- الفائدة! كثير من الأموال، أتعلم أن هذه آخر مهمة أقوم بها؟

- هل تبت إلى الله؟

- تضحكني سذاجتك يا جاري القديم، بعد أن تنتهي هذه المهمة، سأغادر تلك الحارة الحقيرة لقصرى الجديد، وهنالك حرملك مكتظ بالجواري من كلّ شكل ولون، وعندما أستيقظ من نومي، أذهب لوكالتي في الغورية لأجمع أرباحي.

- من أين لك كلّ هذا؟

- من أمثالك أيها المغفل.

انحنى وحفر في وسط الخيمة تماماً، وأخرج زجاجة، وبحرص وضعها بين يدي أحمد، حملق فيها وسأل:

- ما هذه؟

- هذا نوع جديد من السم، كلّ ما عليك هو أن تضع للألفي بك نقطة واحدة منه في طعامه في كلّ مرة، نقطة واحدة، لا تزيد عن ذلك.

- وماذا إذا رأه أحد معي؟

- لا تهتم بذلك، فقط أخبره أنه نوع من أنواع المحسنات، التي تستخدمنها، ولا ضير إن أخذت منه أمامه ليطمئن.

- أتريدني أن أتناول السم بيدي؟

- لا تخف، القليل لا ضرر منه، هذا النوع من السم لا يظهر أثره إلا بعد التناول منه لعشرات المرات، والآن علينا الاستعداد، لأن جيش البك على وشك المرور من هنا حيث تتحقق بركته.

أخذًا ممًّا في فك الخيمة بسرعة، فصوت سنابك خيل البك تردد معلنة قرب بدء أحمد لمهمته، وانتهاء مهمة مقبل.

(15)

الحرملاء

على مهل دب النشاط في حرملك «صالح قوش» بك، انتشرت بعض الجاريات الحبشيّات في زيهن الأزرق السماوي الفضفاض في المكان، يرتتبه وينظفنه، مرت رئيسهن تعطي تعليماتها بكلّ وضوح وصرامة فهي تعلم تقاليد هذا الحرملك جيداً، كما أنها على علم بذوق كل سيدة هنا، ومكانها المفضل، ولم لا؟ وهي من عاشت في خدمة جلستان هانم من قبل أن تحضر إلى مصر.

كانت أول الواسلات رينا، دخلت بنت السبع سنوات مختالة في ثوب أبيض طويل، نقشت عليه وردات بألوان وأحجام مختلفة، جلست في ركنها المفضل في القاعة الصغرى، بعد أن فرشت جاريتها المراقبة لها مفرشاً من السّtan الأصفر، على مرتبة منخفضة نسبياً عن باقي المراتب الموجودة في أركان القاعة، لم يكن هذا يضايقها، فغلو المرتبة وارتفاعها مرتبط بترتيبها في

الحرملك، نعم هي ابنة صالح قوش بك لكنّها الصغرى، ولن تتساوى الرؤوس في حرملك تسسيطر عليه جلفدان هانم، التي تضمّر الغيرة لأمّ رينا، تلك الجارية الروسيّة، التي صارت في أقل من سنة من وصولها قصر الباشا زوجة له، تمثّلت أن يتركها في بلادهم عندما استدعاهنّ لمصر، كانت أوامرها محددة وواضحة أن تحضر كلّ النساء.

أشارت رينا لوصيفتها، والتي تكبرها ببضعة أعوام، اقتربت على الفور من سيدتها، وطلبت منها أن تحضر لها كوبًا من شراب الورد، الذي تحبّه كثيراً، همسَت لها الأخرى بأنّ أوامر الهانم لا شراب قبل تناول الإفطار، أشاحت بوجهها بعيداً عن خادمتها، وهي تلعن جبروت زوجة أبيها، وسيدة الحرملك، وتندى عجز أمّها، الذي جعل عجوزاً خرقاء تحكم في كلّ نسوة هذا القصر.

تقاطرت النسوة على الحرملك، دقائق وكان المكان يعج بالحركة والنشاط، على صواني واسعة رُصّت أصناف الطعام لوجبة الإفطار، تجمّعت الأميرات - بملابسهن الفضفاضة بألوانها الزاهية، وقليل من مجواهرات الزينة - حول الصواني، تناولن وجبنهنّ ووقف الخدم والجواري يحملن أباريق مذهبة، وطسّوت ومناشف حريمية، مشغولة بأشكال رائعة، وقفن يتضورن جوعاً في انتظار إنتهاء أميراتهن فطورهن، ليصبّن لهنّ الماء، ويغسلن أيديهن بماء رقراق في الطسّوت الذهبية.

تسابقت الجواري في رفع الصوانى، وما تبقى كان كافياً لإشياع جوعهن، جلست سيدة الحرملك بجسدها السمين متکئة على جانبها، وصدرها الأبيض الكبير يكاد يختنق من ضيق ملابسها، أشارت لجريدة قريبة منها أن تحضر النرجيلة، أسرعت لتلبى طلب سيدتها، واصطدمت على الباب بنحلة الواقف بطوله الفارع، وبشرته السوداء الداكنة، وشفتيه الغليظتين، وأنفه الأفطس الكبير، لم يلتفت للجريدة، التي كادت أن تقع عندما صدمته دون قصد، وهي مسرعة لتحضر نرجيلة سيدتها.

لا يتذكر «نحلة» كثيراً أيام طفولته، يعي تماماً أنه كان يعيش وسط قبيلته في غابة واسعة لا آخر لها، كانوا ينادونه كباشي، أو ما شابه ذلك على ما يعتقد، وقع في شراك بعض الناس الغرباء ذوي البشرة البيضاء، ولباسهم الغريب، ومعهم آلات معدنية طويلة تصدر أصواتاً مدوية، تردي من يصيبه الصوت قتيلاً، كبلوا قبيلته كلها في سلاسل حديدية، إلا من استطاع الهروب فوق الأشجار العالية، أو في الأدغال الموحشة الملئية بالسباع.

لا يمكنه أن ينسى يومين في حياته.. يوم أن فرقوه عن أبيه وأمه؛ كان على الساحل سفينتان راسياتيان، والمحيط أزرق لا نهاية له، جرّوه على واحدة منهما والسياط تلهب ظهره، لا يستطيع أن ينسى نظرة أمه وقتها والدموع يملأ عينيها السوداويين، تحاول أن تجري له لتفتديه بحياتها، أعادها الطوق الحديدي - الذي قيدوا

به عنقها، وشدوه إلى شجرة ضخمة - إلى رُشدِها، منعها من التحرك، وعلى السفينة وضعوه في قفص خشبي كحيوان بري يخشونه، ذات صباح أخرجوه من قفصه، أمسك به أربعة رجال أقوياء من أطرافه الأربع، وفي لحظات قليلة وبخيطٍ ناعمٍ قويٍ كان الخامس يربط علامة ذكورته وما تحتها بعنف، كادت روحه تغادره من الألم، صلبوه دون رحمة، وبعد أيام قليلة ذبل شيء تحت طرفه الخامس، ليصبح خصيًّا.

تنقل من حرمك إلى آخر، تعرّف على عجزه عندما عاش في عالم النساء، وفي حرمك الأمراء المماليك والأتراك، الحرير ليست ككل الحرير؛ فبياضهنّ نقى، وأجسادهنّ لامعة، ولحومنهن طرية رجراحة، كثيرًا ما تنتابه حالة من حالات الهياج، التي لا يدرى لها سببًا عندما تحتك به جارية أو يلامس خادمة ولو بالصدفة، وعندما يسمع تأوهات تلك السيدة السمينة ذات الصدر الكبير، وهي بين أحضان سيده، تبًا لهذا الخيط الناعم الذي حرمه من حقه، ومنعه من أن يمارس حياته، ويصبح أبًا ذات يوم، تمنى لو لم يأكل أو يشرب، أو حتى يرتدي تلك الملابس المزركشة، والتي يمشي بها مختالاً وسط المصريين الحفاة العراة، مقابل أن يتزوج، ولو من أقبح امرأة يمكن أن تصادف بشرىًّا، يضاجعها ولو مرة واحدة، وينجب طفلاً ويصبح أباً، بعدها هو على استعداد أن يخصي نفسه بنفسه، ولو بحبل من الكتان الخشن.

أسموه نحلة؛ لأنّ بكاءه كثير الشبه بطنين النحل، نسي اسمه الحقيقي، ولغته، وأهله، أصبح مصرّياً رغم لونه وملامحه، نسي كلّ شيء عن ماضيه، إلا نظرة عين أمّه، واليد التي عبّشت بمقدرات رجولته، وهي تلقي بجزءٍ جفّ من جسده طعاماً لأسماك البحر الواسع.

أفاق على صوت السمينة البيضاء وهي تنادي، اقترب منها ووقف أمامها، ويداه معصوبتان أمامه بعد أن طأطأ رأسه، وبصوت ليّن كليونة جسدها، أمرته أن يحضر لها السيدتين والفتاة، اللاتي تستيقضنهن، عاد بظهره حتى ابتعد عنها بمسافة مناسبة، انطلق في طريقه لغرفتها في الطابق العلوي، وفي صدره ضجيج كهزيم الرعد، استمرت جلفدان هانم مع نرجيلتها وتتجذب أنفاسها بهدوء.

انتشرت الأميرات، بنات وزوجات «قوش» بك، ومحظياته في أركان الحرملك، كان بعضهن يثرثر، في ركن هادئ نسبياً، جلست ابنتان من بناته، وحولهما الجاريات يمدحن في أعمال الإبرة التي يُقمن بها، وكأنّهما تتنافسان في معركة وهمية، كلّ أميرة خلفها جواريها، تشجعها وتهلل لها. نظرت رينا نحوهما ووقفت أمامهما تشاهد ما يفعلان، فلم تجد ما يستحق كلّ هذا الحماس، تركتهما ومرت من أمام سيدة الحرملك، نظرت نحو الأرض، عندما اقتربت من مجلسها، نفخت جلفدان هانم دخان نرجيلتها في

وجه الصغيرة بكلّ عنجهيّة، تلك التي لم تخاطر بالنظر نحوها، هي تعلم جيداً أنها لن تتمكن من أن تؤذيها شخصياً، ولمَ لا وهي القادرة بوشایة صغيرة أن تقلب حياة أمّها لجحيم لا يطاق، تجاوزتها في هدوء وذهبت نحو شباك مزین بحديد الفورجية يطلّ على الحديقة.

اقتجم نحلة غرفة الضيوف دون استئذان، جلست على الأرض نفيسة وبجوارها فاطمة، وفي المقابل جلست لا زار حول صينية صغيرة عليها طبق جبن، وبعض الخبز، وأنواع مختلفة من الخضروات الورقية، انتهين لتوهنهن من تناول الفطور، توقف نحلة يراقب إحداهن وهي تقف، ومؤخرتها الجميلة تعلو ثم تستقيم أمام نظره عند وقوفها، فزاد الهياج في صدره.

اندفع الدم في رأسه، لونها الخمرى، عجزها الرائع، صدرها البارز، كل هذا جعله يشتهي احتضانها، وَذَلِكَ لو كانا وحدهما الآن ليعائقها، ولقطع سيده رأسه بعد ذلك؛ فهو لن يبالى.

وقفن جميعاً بعد أن أخبرهنّ بصوته الغريب، أنَّ سيدته تنتظرهن، وعليهنّ أن يمثلن بين يديها في الحال، تقدمت نفيسة وابنتها نحو الباب، وتأخرت الثالثة خلفهما، وقفت أمامه وقد خفضت رأسها في احترام لم يعتدّه من نساء الحرملك، خرجت منها الكلمات متقطعة، فزادت اشتعال النيران في صدر حارس الحرملك، خاطبته وهي تخشى أن

يشي بما ستطلب، تجرأت عندما لمحته ينظر نحوها وفي عينيه
وَجْد، عرفته بغرائزها..

- يبدو أنك رجل طيب، ويمكنك أن، أن، أن تساعدني...

قاطعها نحلة وهو لا يصدق أنهما يقفان وحدهما، لمح بطرف عينه رفيقتها تقفان خارج الباب، وتنتظران نحوهما، فمنع نفسه من الاقتراب منها، فأجاب على الفور:

- يمكنني عمل أي شيء في هذا القصر.

- أريد فقط أن تدبر لي مقابلة مع ابنتي، هل تعرفها؟

- نعم، تلك الفتاة التي أغضبت الهانم، أليس كذلك؟

- لم تكن تقصد وحياتك، إنها ما زالت صغيرة طائشة، هل ستساعدني؟

- سأتدبر الأمر، عندما أشير لك انسحب من المكان دون أن يشعر أحد، اتبعيني وسيكون كل شيء على ما يرام.

أومأت المرأة برأسها بالموافقة، وانطلقت لتلحق بمن تنتظرها على الباب، تَجَمَّدَ الرجل في مكانه، لا يُصدق نفسه بأن هناك فرصة أن يتحقق حلمه، يبدو أن اليوم يوم سعده، زَفَرَ زَفَرَةً، وهرول لاحقاً بالنسبة مثبتاً عينيه على مؤاخراتهن.

وقفت رينا وحدها عند الشباك، تسابق الجميع لمشاهدتها فاطمة، وهي تتراقص على نقرات دُفٌّ تنقر عليه جارية ذات بياض آخاذ، تعللت صيحات الإعجاب برقصها، وجسدها يتمايل في سرعة وإتقان، محاولاً اللحاق بنقرات الدُف، التي تلأعت به يد الجارية الخبيرة.

دارت عين لا لا زار في المكان تبحث عن مرشدتها، وأخيراً ظهرت عند الباب، خفق قلبها بشدة عندما تبسمت لها المرأة، تلفت حوله واطمئن أن الكل مشغول مع خصر الفتاة، أشار لها بيده؛ فقامت بخفة، وتبعته دون أن يلحظ أحد.

تبنته في سرداب ضيق مظلم، والظلام الحالك منعها من رؤيتها، تتبعه صوت قدميه، وفجأة اصطدمت بجسمه، لف ذراعيه حولها، ضمها بقوه نحوه، شعر بلين نهديها يلتصقان بصدره، انزلقت يده أسفل انحناء صدرها، انفتحت أبواب اللذة، لم تدرك ما يدور حولها، قبل أن تصرخ من هول المفاجأة كان قد أفلتها من بين ذراعيه، بعد رعشة قصيرة شعرت بها تمرّ في جسدها كله، أخذ يلهث بصوت مسموع، كحيوان جائع طارد فريسته لدقائق طويلة، والآن يلتقط أنفاسه بعد أن تمكّن منها.

لم تفطن ما حدث، هل انتهى كل شيء بهذه السرعة عندما احتضنها؟ ولماذا تركها بهذه السرعة؟ وما سبب كل هذا اللهاث؟ هي محرومة من لمسة رجل منذ سنوات طويلة، مات زوجها قبل

حوالي عشر سنوات، شعرت أنَّ جاذبيتها مهدرة طوال تلك الفترة، والآن يقع حظها التعس في خصي يفشل في أن يلملم لها عقد أنوثتها، ويعيده حول عنقها مرة أخرى، في قسوة بريئة منعها من متعة خاطفة، لم تُعِ ما حولها، أما هو كان يشعر بأنَّه قد حاز الدنيا كلَّها في تلك اللحظات القليلة النادرة والثمينة من حياته، لم يكن يستطيع طوال حياته أنْ يُقدم على هذه المغامرة، لو حدث لقطعت رأسه، أو ألقى به في النهر مربوطة بصخرة ضعف وزنه مرات عديدة، أو قتلوه بالتنصيص؛ وقطعوه لنصفين من عند خصره، وتركوه يصارع الموت، الذي سيأتيه بعد ساعات من الألم، تمالك نفسه، وبصوت رفيع مبحوح تتمم بكلمات لم تفهم منها شيئاً، اعتقدت أنَّه يعتذر لها، أو يبرر لها ما حدث، لو فسرت كلماته؛ لوجدته يلعن مَنْ خصاه، ولشاركته في هذا دون تردد، سحبها من يديها فتبعته مبهوتة، وهو ما زال يلعن من فعلها به.

جلست عائشة في ركنٍ شبه مظلم، وأمامها كومة من البصل تبشرها، لم تتعرف عليها أمَّها من الوهلة الأولى، في سويغات قليلة تغيير حالها، كبرت في العمر سنوات، بهتت نظرات عينيها بعد أن كانت تلمع كعقيقتين، أصبحت زائفة لا تستقر، تبدل حالها، وأصبحت ترتدي ملابساً خشنة تغطي جسدها الرائع، الذي سيضمُر قريباً من الحزن.

اندفعت لا لا زار نحو ابنتها، وضمّتها لصدرها، وارتفع صوت بكائهما، احتضنتها عائشة، والدموع ينساب من عينيهما في صمت.

افترشت الأرض بجانب كومة البصل، امتلأت عين الأمّ بأسئلة أدركتها الشابة بذكائهما، ألقى برأسها على صدر أمها، خرجت الإجابات معانقة أنفاسها الحارة، ودموع تكفي أن تغرق العالم همّا:

- القهر يا أمّاه، القهر يحولنا إلى عجائز عاقرات، لا قدرة لدينا حتى على الانتحار.

- لا تتحدثي هكذا يا صغيرتي، لقد أصبح لابنة خالتكم حظوة عند الهاشم؛ ستتوسط لكِ، لقد اتفقنا على هذا.

- لن يُجدي هذا يا أمي، إذا أردتِ أن تتعرّفي على أصحاب القصر فهنا هو المكان المناسب لا الحرملك، الكل يتحدث عن قسوتها وعنادها كما يتحدثون عن نهم «قوش» بك للطعام، وشغفه النساء، وكرهه للمماليك وأمرائهم، ومع ذلك تسسيطر تلك العجوز القاسية على رغباته وجموهره، ورغم تجاعيد وجهها إلا أنها ما زالت شبقة لمعاشرته كل ليلة، هكذا يقولون.

تلفت لا لازار حولها خائفة أن يكون هناك من يسمعهما، اقتربت من ابنتها وتمّت:

- اصمتي يا بنيتي، قد يسمعك أحد ويبلغ مولاتي بهذا...

- مولاتك!

- ولم العجب؟ أليست هي سيدة القصر والسيطرة كما تقولين؟

- بلى، لكنّها ليست مولاتنا، ولو عاد بي الزمن لكررث ما فعلت.

لم تندهش للا زار من عناد ابنتهما، فهي ورثته من لبنها، إله العمر الذي يغير كلّ ما فينا، وليس فقط الملامح، العناد والاعتداد صفات لها، فقدتهما مع أول ليلة صارت فيه أرملة، تنهدت وهي تنظر في عيني صغيرتها فقد حان موعد رحيلها، وأشار لها نحلة بالعودة قبل أن ينكشف أمرهم، احتضنتها تمثّت أن تبقى هي هنا وتعود عائشة للحرملك لتنعم برغد العيش، قبلتها بين عينيها وهي تعدّها بأنّها ستتحاول مع مولاتها؛ أصرّت الشابة بأنّها لن تعود إلا بشروطها، اندهشت الأم كثيراً من خيال ابنتهما الخصب، جذبتهما يد رفيقها برفق وبسرعة قبل أن تردد عليها.

(16)

البحث

عبر بابٍ منخفضٍ بالقرب من كومة البصل قاد نحلة تابعته
خارج المطبخ، مرّا بقبو صغير تفوح منه رائحة العفن والرطوبة،
 وأشار نحو براميل خشبية في أحد أركانه وهمس لرفيقته:

- هل تريدين بعض الخمر القبرصي المعتق؟

تعجبت لا زار من وجود خمر في قصر أحد الباكونات، الذين
تعتقد أنّهم لا يخطئون، ولا يرتكبون المعاصي أبداً، ردت بعفوية:

- خمر! أستغفر الله العظيم، هل تشرب يا «نحلة»؟

- لا والله، ظننت أنك تحبيين أن تجربني.

- هل يشرب البك؟!

- في الواقع لم أره مطلقاً يحتسيه في الحرملك أو خارجه، أحياً
يرسل لطلبه وهو في ديوانه عندما يأتي لزيارتة بعض القنائل
الأوروبيين .

عبر بابا ضيقاً منخفضاً في الجهة الأخرى من القبو، خرجا لحديقة
صغيرة يكسوها العشب وفي وسطها نخلة عالية وحيدة يطل عليها
الحرملك بشباك وحيد مزين بحديد فورجية. وصل لأذانهما صوت
نغمات العود ممزوجاً بغناء فاطمة الساحر، تعرفت عليه خالتها،
وأخبرت مرشدتها بذلك، اطمئن أنَّ النسوة ما زلنَّ منشغلات في
لهوهنَّ.

توقفت لتشكر نحلة، هي لا تعرف أنَّها من تستحق الشكر من
وجهة نظره، فهي من جعلته يشعر برجولته، لا لأنَّها جعلته يرتجف
عندما لمسها؛ بل لأنَّها جعلته يشعر بأدميته، توسمت فيه الرجولة،
فطلبت منه المساعدة وهو قد أتمَ مهمته على أكمل وجه، ساعد
أمَّا على أن تجتمع بابنتها، ليته وجد من يفعل فعلته مع أمِّه،
عندما خطفوه في الغابات البعيدة.

دلُّف من الباب المخصص للوقوف عليه، نظر حوله فوجدهن
منصتات لغناء الفتاة، وقد وقف الطير على روؤسهن، يتمايلن في
تلذذ، وقد لف الشجن المكان، وأشار لها، فدخلت، وجلست في
الخلف، وقلبها يدق خوفاً من أن يكون أحد قد كشف أمرها.

نظرت نحو أختها، فلم تشعر بعودتها، كما لم تشعر باختفائها، دقائق وانتهت فاطمة من غنائهما، ألح الجميع أن تستمر، أنهت الهانم الأمر، ووعدتهن بأنها ستغنى مرة أخرى في وجود الباشا، انقض الجموع، وعادت الأميرات إلى أماكنهن يتحدثن عن رقص وغناء تلك المصرية العجيبة.

مدت جلدان هانم يديها لفاطمة، قبلتها على جبينها، نظرت الجواري لها في حسده، نالت الوافدة الجديدة شرف لمس يد الهانم، رببت على كتفها، وهمست لها في أذنها بكلمات قليلة، وأشارت لها بالانصراف، تجمعن معًا هي وأمها وخالتها، اقتربن من الباب ليخرجن، ويعدن لحجرتها ولكن صياغ جارية أوقف الجميع، كان صوتها أشبه بالنواح والبكاء وهي تصيح في قلق:

- أين مولاتي رينا؟ لا أجدها هنا، لقد اختفت.

عم السكون المكان، وقفت الهانم، والشرر يتطاير من عينيها، وأشارت للجارية بالاقتراب، لطمتهما على وجهها، وسألتها في حدة:

- ماذا تعنين أيتها البلهاء بأنها اختفت؟

- ليست موجودة في الحرملك يا سيدتي.

رفعت رأسها والغيظ يملأ عينيها، وأشارت لنحلة بالاقتراب، رجف قلبه، وارتعدت ركبته، هل علمت بغيابه؟ بالتأكيد عرفت

ذلك، وإلا ما نادت عليه وحده، فعلى الباب الخارجي للحرملك يقف شيطح، لماذا لم تطلب الممثل أمامها هو الآخر؟ أسرع في تلبية النداء متمنياً أن يخطفه ملك الموت قبل أن يصل إليها.

نظرت نحوه وقد ازداد احمرار وجهها، وحظت عيناهما من شدة الغضب، وأشارت إليه بطرف سباتها:

- أين ذهبت الصغيرة يا نحلة؟

- لا أدرى يا سيدتي، لم تخرج من الحرملك.

- إذاً أين هي؟

- لا أعرف، ربما غافلت شيطح وخرجت.

- لو لم تظهر الصغيرة أعدكم بعذاب غليظ، اذهب واحضره في الحال.

«لم تعرف باختفائي»، هكذا حدث نفسه، ثم عاودته سحابة من التفكير المتشائم، فمثل هذه لا يؤمن لها جانب، علىها دبرت مع شيطح خطف رينا والتخلص منها، وغيابه وفرّ الجو الملائم للمؤامرة، سيقف زميله أمامها، ويخبرها: بأنه رأه يأخذ الأميرة الصغيرة ويخرج بها. وستجد العديد والعديد من الجواري ليشهدن على ذلك، سيقطعون رأسه عقاباً على هذا، ويحشونها بالقش ويعلقونها على باب القصر، ويرمون باقي جسده في الصحراء ليكون عشاءً

فاحرّا للجوارح، الويل لك يا نحلة، سيضيع عمرك من أجل معانقة لم تستفد منها شيئاً إلا دليلاً عملياً على عجزك وعدم رجولتك.

وقف شيطح بعينيه الدعوشتين بجانب نحلة، كالت لها ما الساب ووعدتهما بعقوبات رادعة تصل للقتل بالخازوق لو لم تظهر ابنتهما قبل الليل، إنّها تدعوهما ابنتهما، والكلّ يعلم كم تكره أم الصغيرة الروسية، التي لم يسمع لها أحد صوت حتى الآن، لم يعد السؤال الآن أين رينا؟ بل هو أين رينا وأمّها؟ دارت الهميمة بهذا السؤال في كلّ أرجاء الحرملك مع توقعات بهروبها، بعد أن خطفت ابنتهما، وصل كلّ هذا لسيدة الحرملك، صاحت في الجميع بأنّ عليهم الصمت. خيم السكون على المكان بصقت وهي في قمة غضبها وصرخت بهنّ:

- كيف تجرؤن على قول هذا؟! لو علم «صالح قوش» بك بقولكنّ؛ لتخلو منكنّ جميّعاً، هل جننتنّ؟ ألا تعلمون عمن تتحدثنّ؟ إنّها زوجة البك، وكفى بهذا فخرّاً، وهي ضرتي وكفى بهذا عزة.

بصقت مرة أخرى، وقد زاد غضبها، وأشارت للخصيبين وهي ترغّي وتزبد:

- أما زلتمنا هنا؟ هيا اذهبوا ولا ترياني وجهيكم إلا ورينا معكم. انطلقوا ليبحثا عن الصغيرة بعد أن اطمئن نحلة قليلاً إلى أنّ أحداً لم يلحظ غيابه، أو يعلم بفعلته، عليه أن يجتهد ويجد الأميرة

الضائعة، ربما يكافئه البasha، وينعم عليه بحريته، ماذا سيفعل بحريته؟ وهل لأنشـاه الرجال حرية؟ لا يريدـها ولا يتمنـها، كلـ ما يرجـوه هو أن يرضـى عنـه سـيدـه، ويـمنـحـه بعـضاً منـ الثـقةـ.

كانـ الحرـملـكـ هـادـئـاً عـلـىـ غـيرـ العـادـةـ، انـزـوـتـ الـأـمـيـرـاتـ فـيـ أـمـكـانـهـ صـامـتـاتـ، وـوـقـفـتـ الـجـوـارـيـ كـتـمـاثـيلـ شـمـعـيـةـ خـلـفـهـنـ، جـلـسـتـ لـلـأـلـ زـارـ وـأـخـتـهـاـ فـيـ رـكـنـ بـجـانـبـ الـبـابـ الـخـارـجـيـ لـلـحرـملـكـ، هـمـسـتـ نـفـيـسـةـ فـيـ أـذـنـ أـخـتـهـاـ:

- هلـ رـأـيـتـهـ؟

هزـتـ رـأـسـهـاـ بـالـإـيجـابـ، وـعـادـتـ أـخـتـهـاـ لـلـسـؤـالـ:

- طـمـئـنـيـ، هـلـ هـيـ بـخـيرـ؟

سـالـتـ الدـمـوعـ مـنـ عـيـنـيهـاـ، فـهـمـتـ أـخـتـهـاـ، رـبـتـ عـلـىـ ظـهـرـهـاـ، وـانـسـكـبـ الدـمـعـ مـنـ عـيـنـيهـاـ هـيـ الأـخـرىـ، مـتـذـكـرـةـ وـحـيـدـهـاـ، وـالـمـخـاطـرـ التـيـ يـواـجـهـهـاـ فـيـ المـجـهـولـ، الـذـيـ لـاـ تـعـلـمـ عـنـهـ شـيـئـاـ، أـجـهـشـنـ بـالـبـكـاءـ، اـعـتـقـدـتـ جـلـفـدـانـ أـنـهـمـاـ يـبـكـيـانـ قـلـقـاـ عـلـىـ اـبـنـةـ زـوـجـهـاـ.

هـبـتـ جـمـيعـ النـسـوـةـ وـاقـفـاتـ، عـنـدـمـاـ شـرـفـ قـوشـ الـحرـملـكـ، كـانـ القـلـقـ يـعـتـصـرـ قـلـبـهـ، أـعـداـءـ كـثـيـرـونـ، لـمـ يـتـخـيـلـ مـطـلـقـاـ أـنـ يـصـلـ الخـطـرـ لـعـقـرـ دـارـهـ، هـلـ تـمـكـنـ الـأـلـفـيـ الـمـلـعـونـ مـنـ خـطـفـ اـبـنـتـهـ لـيـساـوـمـهـ عـلـيـهـاـ؟ـ مـاـذـاـ هـوـ بـفـاعـلـ لـوـ كـانـ الـأـمـرـ هـكـذـاـ؟ـ هـلـ يـغـدرـ بـرـفـيقـهـ الـأـلـبـانـيـ

من أجل صغيرته؟ أم عليه أن يلتزم بالخدعة كعادته؟ اندفعت «جلدان» نحو زوجها، سألهَا والقلق يقطر من حروفه:

- كيف حدث هذا؟

- لا أحد يعلم حتى الآن، شيطح كان يقف خارج الباب الخارجي للحرملك، ونحلة تولى أمر الباب الداخلي.

- وأين هما الآن؟

- ذهبوا ليبحثا عن الصغيرة.

- وأين أمها؟

- ذهبت لزيارة السيدة زينب.

- نعم، لقد أخبرتني بهذا، ولكنني نسيت، لقد أغلقت كل بابات القاهرة، وهناك فرقة من الأRNAؤود تبحث عن الصغيرة الآن، ولن يناموا حتى يعودوا بها.

زادت الكلمات من ازعاج الموجودين، عملية البحث قد تطول، لا أحد يعلم ماذا سيحدث في عملية بحث كهذه مثل فاطمة وأمها، سينتشر الجنود في كل مكان، وسينهبون البيوت وال محلات والمخازن بحجية البحث عن شيء لا يفصحون عنه، إذا قاوم أحد، أو أظهر التذمر؛ فقد يصل الأمر للسجن، وربما للقتل أو الاغتصاب،

كُلّ هذا من أجل حصان عزيز على أحد الأمراء فرّ هاربًا، أو جارية يئسَت من حياتها لسوء معاملة أسيادها فقررت في لحظة جنون أن تهرب، ترى ماذا سيحدث هذه المرأة وهي ابنة قائد الأرناؤود؟

تبعدت عيون الحرير سيد الحرملك وهو يتحرك في أنحاء المكان على غير هدى، توعّد بعذاب أليم لمن قام بخطف ابنته وأنه سيمحو عائلة هذا المجرم من على وجه البسيطة إذا ما لحق بها أيّ أذى، عقد يده خلف ظهره، وتعلقت عيناه بالأرض، ثم اندفع خارجًا من الحرملك، صوته المرتفع كان يتعدد داخل حرملكه، وهو يكلّم أحد كبار ضباطه:

- اعلنوا وبسرعة عن جائزة كبيرة لمن يدل على صغيرتي، هيها بسرعة.

عاد كأسد جريح لعرينه، نَكَسَ رأسه، ماذا لو علم محمد على باشا بما حدث في بيته؟ ستنهي ثقته به بكل تأكيد، لا، عليه بأن يتكتم على الأمر، خرج مسرعًا وتحدث مع ضباط فرقته، ملغيًا فكرة الإعلان عن تلك الجائزة، ورجع والحيرة تقاد أن تفتاك به، اقتربت منه جلordan هانم دون أيّ كلام، وب مجرد إشارة أو قفها، فعادت لتجلس مكانها، وهي لا تعلم كيف ستبرر له ما حدث؟ سيتهاهمها بأنّها من دبرت ذلك، تعلم جيدًا أنه لا يعيش دون مؤامرات، وبالتالي تأكيد سيتهاهمها بالتأمر.

قطع الضجيج خارج الحرملك الصمت بداخله، خرج الباشا بسرعة، وعاد وهو يحتضن ابنته، ويجري مهرولاً، تبعته عائشة بعدة لحظات، تبحث بعينيها عن أقاربها، عم الفرح المكان، بينما الدهشة قد أوقفت أمها وخالتها وبنت خالتها، وتملكهنّ الفرح بعودة رابعهنّ.

حاول قوش بك أن يفهم ما ححدث من ابنته، لم تنطق ببنت شفة، اتسخت ملابسها، وتعفر وجهها وشعرها، كأنّها لم تعرف للحمام طريقاً منذ أن ولدت، هزها أبوها ولم تنتبه لما حولها، لقد تبعت لا زار ظناً أنها ستحضر لها كوبًا من الشربات كما وعدتها من قبل، وفي السرداد المظلم تعرفت على كلّ أنواع العفاريت والجان، الذين تسمع عنهم في الحواديت، رأتهم بأمّ عينيها، رأت وجوههم الزرقاء، وعيونهم الحمراء، وأظافرهم الطويلة، وأرجل ماعز سوداء، وشعرهم الأشعث الطويل، والذي ينتهي ببرؤوس ثعابين مخيفة، كادوا أن يخطفوها، لولا أنّها جرت، حتى وقعت أمام كوم البصل في المطبخ.

سأل البك عائشة عن ملابسات عثورها على ابنته، كان أشبه باستجواب قاس، رباطة جأشها ساعدتها على أن تقنعه بأن لا يد لها فيما حدث، وأنّها وجدتها، وتعرفت عليها وأعادتها، اطمئنَّ أنَّ كلَّ شيءٍ بخير، فسأل سؤالاً أخيراً:

- كيف أكافئك؟

- العفو يا جناب البك، لم أفعل شيئاً يستحق المكافأة.

- هل أنتِ جارية هنا؟

- لا.

- لو كنتِ لمنحك حريتك، من أنتِ إذًا؟

- من المفروض أنني ضيفة عندكم مع أمي وخالتى وبنت خالتى.

سرح الباسا بخياله لثوانٍ ليتذكر شيئاً ما، لم يطل الأمر، لا بد أنهم أقارب الشاب المصري، الذي ذهب ليقتل الألفي اللعين، نظر نحوها وهو في حيرة من أمره، إن كانت هي من أقاربه، فلماذا ترتدى تلك الملابس الحقيرة؟ وما السبب بأن تكون في المطبخ؟ ففهمت ما يدور في خلده دون أن يفصح عنه، أسرعت لتجيب عن تساؤلاته:

- غضبت سيدة القصر علىي دون أي خطأ مني.

تحركت جلدان للاقتراب منهما، وأشار لها البك أن تبقى مكانها، عادت عاصفة التساؤلات تعصف في رأسه، وكعادتها أجابت قبل أن يسأل:

- كان اليوم الذي حضرنا فيه إلى هنا يوماً عصيّاً علينا، عرضنا رجالك في سوق النخاسة، ثم قضينا ليلة مزعجة في حجرة ضيقة

مليئة بالجان والعفاريت، وفي الصباح غضبت مني جلفدان هانم لأنني كنت أريد أن أشكوا لها ما حدث لنا، لم تستمع لي وعاقبتنى بأن أعمل في المطبخ كخادمة، ولعله خير يا باشا، ربما كل هذا حدث حتى أجد ابنتكم وأعيدها لأحضانكم.

وأشار لكبيرة الجواري أن تأخذها للحمام هي وابنته، تبسم لعائشة مطمئناً، لكن نظراته نحو جلفدان كانت تحمل كل معاني العتاب واللوم، لم تقلق الهانم كثيراً من هذا، هي قادرة على تخفي محننة صغيرة مثل هذه، كما تخطت الكثير من قبل، أدركت وقتها أن هذه الملعونة، وأقاربها يمثلون خطراً حقيقياً عليها الآن، عليها أن تخلص منهم بسرعة ودون جلبة أو ضوضاء.

(17)

المارستان

درجات متقاربة تصعد تارة وتهبط تارة أخرى، لتعود للصعود متعرجة بشكل عشوائي، تقودك في نهايتها لميدان صغير، شوارع ضيقة متعرجة تصب فيه، وكأنّها قنوات صغيرة شقتها الأمطار لينتهي مصير مياهها في بركة كبيرة.

محال صغيرة متلاصقة، أمام أحدها منصات خشبية منخفضة، فوقها تلال صغيرة من التوابل، وانتشر عبقها في المكان، فاختلطت وتمازجت روائحها وألوانها في روعة عجيبة، بجواره تكدست كثبان صغيرة من الزبيب بلونه العقيقي في تنافر مربك مع جوز الهند المبشور، متقطعين مع أكواام صغيرة من المشمشية والقراصيا وعقود التين المُجفف، انتصبت هضباتان صغيرتان من الكركديّة والتمر هندي على الأطراف كحارسين يحميان المكان، في حانوت مجاور للعطار

تَكُومْ رَجُلْ تَحْتَ أَثْوَابْ قَطْنِيَّةْ فِي كَسْلٍ مَفْرِطٍ، وَقَدْ تَشَارَكَتْ عَلَى الْحَائِطِ أَثْوَابْ قَمَاشْ فِي تَنَاغِمْ بَدِيعْ.

ازدحم الميدان بالباعة والزبائن رغم الحر الشديد ومع كل هذا الزحام لا أحد يبيع أو يشتري تقريباً، اكتفوا بالمشاهدة وتقليل البضائع، والسؤال عن ثمنها دون شراء، أصوات متداخلة لا تميز منها شيئاً، ثرثرات النساء، صراخ الأطفال، سباب الشباب، شكاوى الرجال من الأسعار، التي تضاعفت، وعجزهم عن إطعام أسرهم، نفحات من صدور مغناطة تخرج؛ تزيد الجو حرارة.

تأففُ، ضيقُ، غضبُ وعجزُ، مزيج من المشاعر لا تستطيع أن تميزه، اختلطَ مع أشعة الشمس، وعرق الأجساد، ورائحة تزكم الأنوف من أكواام قمامنة مكدسة في أركان المكان، بجانب أحد الأكواام تحلق الكثير من الرجال والصبيان، وقف رجل قصير وسط الحلقة، وفي يديه ديك أبيض يتزين ذيله بريشات قليلة سوداء وغُرف أحمر طويلاً كتاج فوق رأسه، وضعه على الأرض، نثر بعض حبات القمح أمامه ونبش الأرض بمخالبه القوية بحثاً عن طعامه، بعد أن انتهى من وجنته، واستعراض قوته وتقديم مالكه وحمله بين يديه.

رفع رجل آخر ديكأ أحمر ريشه في لون الكهرمان له ثرعلة كثيفة، دار به حول نفسه، ووضعه على الأرض، وبنفس الطريقة

نشر له بعض حبات الذرة، دار ذو الرقبة الطويلة حول نفسه في تيهٍ، فنقر الأرض بمنقاره القوي، التقط الحَبْ برشاقة وقوّة، مدّ رقبته الطويلة في غرورٍ، رفرف بجناحيه؛ فأثار التراب، ومعه تعالى صياح الرجال والصبية، توجّه بعضهم لكهل يفترش الأرض، أمامه صندوقان خشبيان، غطّي أحدهما بقطعة قماش بيضاء والأخرى بقطعة حمراء، نزع الغطاء الأبيض، وألقى فيه الرجال رهاناتهم على صاحب الريش الأبيض الطويل، أعاد الغطاء الأبيض فوق الصندوق وسحب الأحمر من فوق الصندوق الآخر، تسارع الكثير من الرجال، وألقوا رهاناتهم بداخله على الديك الأحمر.

تواجه الديكان، وببدأ صراغاً دامياً ينتهي بقتل أحدهما الآخر، يحمس كلّ مالك مقاتلته للمعركة، ويدفعه نحو منافسه غير أبيه بعينه، التي فقئت، أو بدمٍ يسيل منه، ما يهمّهم هو أن يشارك أحد المالكين بجزء من صندوق الرهان، من خلف الحلقة مزّ «سالم المرجاوي»، لفت انتباهه صياح الرجال وحماسهم، رفع عنقه محاولاً أن يرى المتصارعين ولم يتمكن، غادر مسرعاً، فلا وقت يضيعه بعد طول غياب عن عائلته، لعلهم في انتظاره الآن، ليشاركونه الغذاء الساخن، تمنى أن تكون زوجته قد أعدت له محشي البازنجان والفلفل، الذي يحبّه.

كأنّ البيت مهجوّاً منذ فترة، وهذا واضحٌ من التراب
المكدس على الحيطان والفرش البسيط، توجه مسرعاً نحو
منزل جاره مقبل، وقف على الباب وصفق بيديه، ناداه؛ وخرج
له متظاهراً بأنه متراجعاً من زيارته، ورحب به كثيراً، محاولاً
إظهار كرمه، سأله رب العائلة العائد من عمله في أحد مصانع
السكر بالصعيد عن عائلته، فقد كان آخر عهده بهم أنّهم
كانوا برفقة جاره وعائلته متوجهين نحو مولد السيد البدوي،
رفع الجار كتفيه، وقلب شفته السفلية كنوعٍ من الإجابة على
سؤاله، لم يفهم سالم ما المقصود من هذه الإجابة.

أعاد السؤال مرة أخرى، ولم يكدر مقبل يفتح فمه ليجيبه،
حتى أخرسته المفاجأة، عز الدين وجندوه واقفون أمام بيته،
دفع جاره جانبًا وأسرع مرحباً بضيوفه الجديد، اقترب من
حصانه، لكن الفارس ركله من فوق حصانه بقوة في صدره،
وقع على أثراها على الأرض أمام جاره، ترجل بعض الجنود عن
أفراسهم، كبلوا الممدّد على الأرض، ونبشوا بجانب بيته حفرة
صغيرة، فظهرت كيس قماشي بين يدي أحد هم، سلمه لعز الذي
أخذ يرفعه ويلقنه أمام صدره، وهو يبتسم في مكر، والسؤال
يناسب من فمه في برود:

- لماذا سرقت هذا الذهب من قصر قوش بك؟

- لم أسرق شيئاً، أقسم لك يا أميري، لم أسرق شيئاً.

- سرقت يا عزيزي بمساعدة تلك النسوة اللواتي أودعناهن
هناك كضيفات مكرمات.

- صدّقني لم أفعل، أقسم بالله العظيم أتنى لم أسرق.

- « قالوا احلف؛ قال جاءك الفرج »، هيا احضروه.

رفعه الرجال من على الأرض، اندفع سالم ووقف تحت
قدم الأرناؤودي، أمسكها بيده وأخذ يقبلها والدموع ينهمر من
عينيه:

- أرجوك أن تساعدني جنابك.

- من هذا؟ هل هو؟

نظر نحو المكبل الواقف في ذلة، هز رأسه في وضاعة دون
أن يرفع عينيه.

- أنت والد أحمد؟

- نعم يا سيدي، أنا أبوه وفاطمة ابنتي، ونفيسة زوجتي.

- احضروه مع مقبل، هناك أكياس في المركب تكفي
الجميع، والأحجار الثقيلة متوفرة، والنيل لن يرفض إغراقيهما
معاً.

جئى مقبل على ركبتيه مستعطفاً، أصبح مصيره واضحًا
 أمامه الآن، سيضعونه في كيس قماشي متين بعد أن يكبلوا
 يديه، وقدميه، ويرافقه في الكيس أحجار ثقيلة، كفيلة بأن
 يستقرّ الكيس في قاع النيل في ثوانٍ، لم تُشفع له الخدمات
 التي قدمها، ولا دموعه التي تغمر وجهه، لن يسعد بقصره
 الجديد، الذي كان على وشك الانتقال إليه، لن يفرح بتجارته،
 التي أعدّ لها محله الجديد، كلّ شيء صار هباءً، حَقّاً إنّ آخر
 خدمة الغرّ علقة، ما ذنب هذا الكهل الذي سيشاركه مصيره
 المحروم؟! رفع وجهه ودموع الندم تغرقه، خرجت الكلمات
 منه كثوبة يعلنها، أو كحسنة يريد أن يكسبها في آخر حياته،
 لعلها تُشفع له يوم حسابه، فأجابه:

- لا ذنب لهذا المسكين، إنه مجرد مجنون، نعم، هو
 مجنون، فقد عقله بعد أن فقد عائلته.

ضحك عزّ في مجنون، وهو يسمع هذه الكلمات، هز رأسه
 بالموافقة ساخراً:

- مجنون! فليكن هذا، للمجانين أمثاله مكان يليق بهم،
 خذوا هذا المجنون للمارستان، وهذا اللص حيث اتفقا.

وكز حصانه، واستدار منتصراً، ومن خلفه بعض جنوده، قاد
 الآخرون الجارين كل منهما إلى نهايته، دموع مقبل لم تتوقف،

وصياغ سالم متسائلاً عن عائلته لم ينتهِ، كل ذلك وأهل الحرارة
لا يجرؤون على أن يطلوا من نوافذهم، حتى لا يشاركون أحداً
منهما في مصيره.

(18)

فَكَ الْحَصَار

على أريكته في صدر ديوانه جلس يدخن غليونه، وقد عبق المكان برائحة التبغ اللاذقي، تخلل الدخان الخارج من أنفه شعر شاربه الكثيف، مد شفته العليا للأمام، ونظر للدخان وهو يتتصاعد من بين شعيرات شاربه، تبدد الدخان، وعاد يسحب نفساً أعمق، تجسد الدخان على شكل امرأة مكتنزة، مر طيف جلفدان في ذاكرته، تلك المرأة تمتلك كل قلبه، ولكنها لا تتورع عن إبعاد أي امرأة عنه، وكأنها تحاصره وتحصره في قلعتها، حيث لا باب ينفذ منه، أو شباك يجدد هواء حياته.

ورغم هذا الحصار، إلا أنه تمكّن أكثر من مرة من كسره، والخلاص منه، ولو لساعات قليلة، لكنها كانت كافية أن يضيف لنسائه واحدة، تقبلها سيدة الحرملك على مضضٍ،

وتشدد من حصارها، علها تتمكن من الاستئثار به ومنعه من مغامراته الهوجاء.

يحلم بأن تلد له زوجة من زوجاته ذكرًا، ولد يحمل الراية من بعده، يقف بجانب الوالي، أو أحد خلفائه، ويكون ساعده الأيمن، كما هو حاله مع محمد علي باشا، ولكن دائمًا يبقى ما يتمناه حلمًا، ومع كل ولادة جديدة تزف له القابلة قدوم بنت مثل القمر، لا يضاهيها أحد في جمالها، إلا أمها.

سحب النفس الأخير من غليونه، وقبل أن يخرج الدخان من صدره، تقدم خادمه وأخذ الغليون من يده، وأسرع في إعطاء أوامره لعبد يقف بالقرب من باب الديوان أن ينطلق كالريح لينظف الغليون، ويحضره بسرعة ليجهزه هو بنفسه لسيده ومولاه.

خرج العبد، وفي يده الغليون بقصبته الطويلة، ليدلّف من بعده أحد الحراس، يخبره أن هناك ضابطًا يطلب مقابلته، نظر الخادم في عين سيده، وعلى الفور أعطى الإذن للحراس لدخول القادر، وما هي إلا لحظات، وكان عز الدين يقف أمام قوش بك، وبين يديه صندوق خشبي من الأبانوس الأسود مطعم بالصدف، انحنى قدر ما يمكنه، وقبل الأرض بين يديه، ورفع الصندوق أمام سيده.

تقدّم الخادم بسرعة وفتح الصندوق، نظر صالح قوش
عليه وغمغم بصوت متقطع:

- هذه هي المجوهرات التي سُرقت من الحرملك؟

ودون أن يرفع عز الدين عينيه أو يخفض يديه، قال في
ثباتٍ:

- هي يا سيدي.

- أحسنت يا عز الدين، قبضت على اللص بسرعة، كنت
عند حسن ظني بك.

أسعدت كلمات الأطراء عز الدين، مما شجعه على أن
يقرب ويقبل طرف كُم سيده، الذي ربت على كتفه، وهو
يأمره بالوقوف، وقف نافخاً صدره، ويده اليسرى مضمومة
إلى جانبه، واليمنى تحمل الصندوق، تقدّم الخادم، وأخذ
الصندوق من يده، وخرج دون كلام.

وأشار البك لضابطه بالجلوس؛ فجلس غير بعيد عنه، وعيناه
معلقتان بعين قائد، الذي سأله في فرحة:

- هل عرفت كيف دخل هذا الأفاق إلى الحرملك؟

- في الواقع هو لم يكشف عورة حرملك حضرتكم، لكن

المسروقات خرجت له بمساعدة ضيوفتين تقىمان في ضيافة سعادتكم، واحدة منهن جارة قديمة له، وهي من تمكنت من مغافلة الخزنة، وحصلت على المجوهرات، والثانية أوصلتها له، كل هذا تم أثناء ما كانت ثالثة صغيرة ابنة واحدة منهن تغني وترقص في الحرملك.

تلك الصغيرة، التي أثارت شهوات الباشا عندما وقعت عليها عينه، تمنى لو كانت جارية من جواريه؛ ليقضى وطره، سأله في لهفة:

- وهل هي مشتركة أيضاً في هذه المكيدة؟

- لا يا سيدي، لكن يا جناب البك هناك شابة أخرى معهن يمكن أن تكون خطيرة، ولا أستبعد أنها لها يد في اختفاء نجلتكم الكريمة، وربما كان هذا جزءاً آخر من الخطة، يخطفونها ويساومننا عليها، أو حتى ليضمنوا سلامتهم حتى يخرجوا من البلاد.

انتفض البك في جلسته، عندما تذكر حادثة اختفاء صغيرته رينا، وحاول ربط الخيوط ببعضها، كيف اختفت؟ ومتى؟ وكيف عادت؟ ومن أعادها؟ حك لحيته بيده، وهو ينظر بعمق في عين ضابطه:

- هل أنت متأكد من هذا يا عز؟

- هذا هو أغلب الظن يا سيدى، وأرى أنه من الأفضل أن
نخلص منهن جميعاً.

اطرق البك يفكر في هذا، وسبابته تشارك مع إبهامه
في شد شفته السفلى برفق، التخلص من العجوزتين سهل،
والاتهام جاهز، والعقاب معروف، دخل الخادم يؤكّد أن ما
كان في الصندوق هو المسروقات بعينها، ولم ينقص منها
شيء، وعلى الفور أطلق صاحب الديوان أوامر الخادم بأن
يقبض طواشى الحرملك على السيدتين، وُسلما إلى القوة
في الخارج، وينتظروا الأوامر التي ستأتي مع عز الدين، خرج
الخادم مسرعاً وعاد ليشعل لسيده الغليون، ويتأمل الدخان
المتسدل من بين شعيرات شاربه.

نظر نحو عز في مودة، وابتسم وهو يلوك الكلمات،
ويمزجها بالدخان الخارج من فمه:

- من الظلم أن تأخذ الصغيرتين بإثم لم ترتكباها.

هز الضابط الجالس بجواره موافقاً، أكمل البك حديثه:

- ومن الخطر أن نبقي التي تشك فيها، أليس كذلك؟

على الفور رد عز بالإيجاب على سؤال قائد، أكمل القائد
كلامه بعد أن فرغ فمه من الدخان:

- ماذا لو فرقنا بينهن؟

- لم أفهم مقصدك سيدي.

- قل لي، هل ترك السارق شيئاً يورث؟

- نعم، بيت جديد، صغير إلى حد ما، وله حديقة متواضعة،
ووكالة في خان الخليلي عامرة بأنواع البخور والعطور.

ضحك صاحب الديوان ضحكة عالية، وعاد للكلام مرة أخرى:

- وعجزتان ستلقيان حتفهما عن قريب، وفتاتان على قدر
كبير من الجمال.

صمت لبرهة وهو يقتل شاربه الكثيف وأكمل حديثه:

- أما البيت والوكالة فهما لخزانة البasha، وتلك الفتاة، التي
تشك فيها مكافأة لك، أنت حر التصرف فيها، هي ملك من
الآن.

- والأخرى؟

- لا شأنك لك بها.

فهم عز الدين مقصد قائد، ابتسم ونظر إلى الخادم،
الذي لم يتحرك، حتى أشار له سيده بطرف خنصره، انطلق
ليضم عائشة للمنتظرات مع القوة في الخارج، وقف عز طالباً
الانصراف، فسمح له، اتكاً صالح قوش على أريكته، وذهب
في نوبة ضحك عالية، وحلم الولد يروده بشدة، لعله يرزق
به من تلك المصرية الباقية في الحرملك، واندفع عز خارجاً
منتظراً أحد الأغوات ليعطيه مكافأته من سيدة الحرملك على
صنعته التي دبرها وأدارها بنفسه.

(19)

ذيت السمسم

رفرت الأعلام في ثقة وتيه فوق القصر الخشبي، لو تعلم
مدى فشل صاحب القصر ما حركت ساكناً، ولبقيت ساكنة
دون حراك، في بهو كبير زين سقفه بثريات ذهبية لامعة،
وُفِرَّشت أرضه بسجاد حريري بألوان زاهية بدرجات مختلفة
ما بين الأحمر والأزرق؛ جلس «الألفي» بك على أريكة
دقيقة الصنع، وحوله بعض من رجاله، عليهم أن يسرعوا
في اقتحام دمنهور، لكن كيف لهم ذلك وقد تحصن أهلها
خلف سورها الجديد؟! نصبوا المدافع على أبراجه، وزاد
الأمر صعوبة مع الخندق الذي يحيط بالمدينة؛ وهي في
مكانها المرتفع، تحير رجال «الألفي» مما يحدث، جلسوا
مع قائهم يتناقشون، هم يعلمون جيداً؛ أن السيد «عمر
النقيب» يمدّهم بالبارود، والذخيرة، والمؤمن، والرجال،

ويثبّتهم بكلامه الحماسي، يعشّهم بالجنة إذا قُتلوا،
وبالكرامة، والعزّة ومستقبل أفضل لو كان النصر حليفهم.

في مكان بالقرب من القصر وقف «أحمد» أمام وعاء
نحاسي كبير، بناء على طلب من صاحب القصر عليه
أن يعدّ العشاء له، أرز متبّل، ولحم غنم، وطواجن خضار
بمذاق حار، هذه ليست المرة الأولى التي يعدّ فيها طعام
العشاء للبك وقادة جيشه، وفي كلّ مرة لا يعرف ولا يتذكّر
إن كان قد أضاف السم أم وضع زيت الزيتون الذي يحبّه
سيده، في اللحظات، التي يريد أن ينفذ فيها المهمّة
الموكلة إليه؛ تتسرّع دقات قلبه؛ يعلو الطنين في أذنه،
وتزوج عيناه، ويجف حلقه، ينسى ما قدم من أجله، حتى
أنّه لا يستطيع أن يتذكّر إن كان قد احتفظ بالزجاجة التي
 أعطاها له «مقبّل» أم تخلص منها قبل أن ينضمّ لتجريدة
كبير المماليك.

طارده الكوابيس في الليل، دائمًا ما يحلم؛ بأنّ رجال
«الألفي» يحيطون به من كلّ جانب، ويقيدونه في نخلة،
ويشعّون نارًا تحته لتلتّهمه ببطء من قدميه، وحتى منبت
شعره، يشعر بالنار ثديب جلدّه ولحمه، يستيقظ مذعورًا، كلّ
ليلة يحلم الحلم نفسه، أصبح يخاف من النوم، ومن الأكل،
ومن الهواء الذي يتتنفسه، يطارده القلق ويتملّكه التوتر.

ما يهون عليه الأمر أن سيده أشاد بطعمه، وأنه ينتظر
أن يحضر قنصل إنجلترا قريباً، وعليه أن يعد العدة لهذا
اليوم.

أحاط اليأس برجال «الألفي»، رفض السيد «عمر
النقيب» وأخرون من زعماء الأزهر أن يقفوا بجوارهم من
قبل، طلب زعيمهم منهم التوسط بينه وبين الباشا، أبوا
ذلك بجرأة تصل حد التبجح، خذلوه؛ لم يكتفوا بذلك،
بل قدمو الدعم لغريميه بكل الطرق، بالرغم من أنه
يفرض الكثير من الضرائب، ويجمع أكياس المال والعلف
والمحاصيل من كل بلدة يمز بها رجاله، يبتدع قروضاً من
الغالل والحبوب، يحصل الجمارك على البضائع مرات
عديدة، وشيخ الأزهر لا يعترضون مطلقاً، بل على العكس
يؤيدونه، اشتد النقاش بين الرجال، كل هذا والبك صامت،
تنحنح «محمد بك الألفي» أخيراً ليصمت الجميع..

- هل تعلمون ماذا قال الثعلب اللبناني عن المصريين؟

تجول بعينيه بينهم؛ منتظراً أن يجيئه أحدهم، لم يرَ
أحد على سؤاله، أصْهُ أمرهم، هز رأسه متعجبًا من جهل
أتباعه، وعدم متابعتهم للأحداث، وكأنها لا تهمهم أو
تخصهم، اعتدل في جلسته وهو يجيب عن سؤاله:

- المصريون كالسمسم، لابد من الضغط عليهم، وعصرهم
لتحصل على الزيت.

تبسم أحد أتباعه والاندهاش ينضح من نبرة صوته:

- هل قال هذا؟!

- نعم.

- لقد أصاب كبد الحقيقة، لكن كيف عرف طبعهم وهو
لم يكمل هنا إلا سنوات قليلة؟

- لا لم يصب إلا كبد زيفه، كنت أعتقد نفس اعتقاده
هذا أيام رعونتي، كبلتهم بالحديد، أذقتهم شتى أنواع
العذاب والظلم، والنتيجة كما ترون الآن، لا أحد يمدّ لنا
يد العون، يتعاملون معنا وكأننا مرض عضال برأوا منه ولا
يريدون أن يعاودهم مرّة أخرى.

- كيف يجب أن نعامل هؤلاء؟ إنهم جنس فلاحين
لئام أنجاس؟ وهم لا يجدون معهم إلا القسوة فلو شبعوا
لافترسونا.

- هذا خطأ جسيم، لو كان عندك بقرة؛ لا بد أن تطعمها
وتغذيها وتريحها حتى تتمكن من حلبها وتعطيك إنتاجاً
وفيراً، لو كتب الله لي حكم البلاد والله لأملاّن ربوعها عدلاً.

- أدعوا الله أن يتحقق هذا قريباً.

- سيحدث، كما سخر الله لنا الإنجليز لطرد الفرنسيين، سخرهم لمساعدتنا الآن لتعتلي عرش مصر.

تدخل أمير آخر في الحديث:

- لقد كنت على وشك أن تعتملي العرش لولا تلك الخلافات اللعينة التي وقعت بين الباب العالي والإنجليز، هناك سؤال يحيرني يا مولاي.

- ما هو؟

- لماذا يساعدنا الإنجليز؟

- نؤمن لهم طرق تجارتكم الآتية من الهند فقط، كما أنّهم أصحاب دين سماوي مثلنا، ليسوا بكافرة مثل الفرنسيين، ينادون بشعارات كاذبة جوفاء لا معنى لها.

- حرية وإخاء وعدالة؛ ليست بجوفاء يا مولاي.

احمرَ وجه «الألفي» غاضبًا، كيف لأمير مهمما كانت قوته أن يرد عليه ويعارضه هكذا، وهو أحد تلاميذه، لو استمروا هكذا الانفلت الزمام من يده، تذكر كيف استضعفه المماليك عندما قرر الاعتزال، ردّ بحدة ليئد الفتنة في مهدها:

- عندما ترددنا فقط ولا تطبقها تصبح جوفاء، لا قيمة لها، علينا أن نتحد الآن، نحن لا نحارب المصريين، لكننا نحارب غريباً أتى يستأثر بخيراتها، ويلفظنا كخبث أصاب البلاد، نحن من حكمتنا تلك البلاد بطولها وعرضها لما يقارب من ستة قرون، ليخرج علينا رجل بلحية قميئه ويطردنا من إرثنا الذي ورثناه كابر عن كابر، والله لن يحدث هذا مادمت على قيد الحياة.

قام أمير آخر وتوجه لمعارض «الألفي»، كان الغضب قد حاصره هو الآخر فصاح في وجهه:

- اسمع يا أمير طبلخاناه^(١٩) أنت، من قبل اعترضتم، وشققتم عصا الطاعة، قل لي ماذا كانت النتيجة؟

لم ينطق المعارض، فاستكمل الأمير كلامه بعد أن أمسك بمقبض سيفه:

- سأخبرك أنا، أغرتكم أوسمة ونياشين العثمانيين وكلامهم المعسول، وهم كما قال لكم كبيرنا هذا من قبل: إنّهم يبغضوننا وينتظرون الفرصة ليتخلصوا منا ليخلو لهم خير هذا الإقليم، ويصبح لهم وحدتهم، هل نسيتم ما

9 - أمير تحت إمرته غالباً أربعين فارس. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.

فعلناه بهم؟ منعنا عنهم الخزانة، ولم نمتثل لأوامرهم، إن كنتم قد نسيتم؛ فهم لم ينسوا، فانتبهوا لكل حرف يقوله رئيسنا، والزموا صفة، ولا تكثروا من الجدال.

وقف أمير آخر وقال بصوت به نبرة سخرية:

- تذكرون جيداً عندما حذر عظيمنا من العثمانيين، وأثبتت الأيام بعد نظره، اغتر سفهاؤنا بكلامهم الخادع، وذهبوا كالبلهاء لسفينة الوزير العثماني، فتكوا بهم، ولولا تدخل الإنجليز لقضى الأتراك عليهم جميعاً، ولولا حكمة ودهاء أميرنا هذا ما خرجنا بثرواتنا، ونسائنا بعد أن أقنع محمود أفندي كاتب الوزير بأن يجمع له من الصعيد أموالاً ضخمة مات أصحابها، هل تذكرون كيف خرجنا؟ خرجنا معززين يتبعنا الطبل والزمر، قُتل من قُتل في سفينة الوزير بعد ذلك، ولا تغتروا بنصركم في النجيلة، الآن هناك ذئب بعقل ثعلب، وفروة حمل كل يوم يزداد قوة، وهو ينافسنا في ايامكم والفرقـة وكثرة السؤال وإلا ضعنا كما ضاع الذين لم يستمعوا لنصيحته.

لم يكملوا نقاشهم، فالسماط جاهز الآن، ووقت الطعام لا يجوز الكلام، ورائحته الشهية كفيلة بإيقاف أي جدال أو نقاش مهما كانت أهميته.

تجمع الرجال حول المائدة، سال لعابهم من رائحة الأصناف الشهية، رفض أميرهم أن يمد أحد يده وطلب مثول الطباخ بين يديه، ثوانٍ قليلة وكان «أحمد» يقف أمامه، والخوف يكاد يكتم أنفاسه، نظر له نظرات كادت أن تخترق لحمه لتذيب عظامه، لا بد أنه اكتشف أمر السم الذي لا يعلم إن كان يدسه أو لا، ربما وشى به «مقبل» الوغد مقابل بعض الذهب، فمثل هذا اللئيم لا آمان له، لم تطل نظرات «الألفي» له وبكل حدة سأله:

- كم مرة أخبرتك أنني لا أحب هذا القرع في طعامي.

ارتاح «أحمد» قليلاً، التقط أنفاسه، التي كادت أن تنحشر في زوره منذ قليل، وبسرعة وضع طواجن من الخضار أمامه، وهو يبتسم ويهمس في أدب:

- لقد أعددت البعض لحضرتكم دون قرع، فلقد أوصاني أحد الأمراء هنا بأنه وبباقي الأمراء يحبونه، لذلك جهزت ما يوافق طلبكم وطلبهم.

- أحسنت صنعاً.

مد يده بعد أن سمى بالله، ومن بعده اندفع الرجال في حماس، عاد «أحمد» أدراجه، وقد نال القلق والخوف منه ما نال، لم تعد ساقاه قادرة على حمله، ارتمى على

فرشته وهو يلهث، شدّ غطاءه على وجهه محاولاً النوم،
لكنه دائم العناد معه، وعندما يصل يأتي بصحبة الكوابيس
الحارقة، تبأا للألفي وللباشا ولمقبل ولكلّ من فكر أن يعتلي
حكم هذه البلاد البائس أهلها، يقاتلون بعضهم حول من
يعتلي الحكم، ويدفع أمثالٍ الثمن من أموالهم، وشرفهم
وأرواحهم.

(20)

أولاد البلد

طال الحصار، ولم يعد البقاء يجدي نفعاً، كل يوم يمر على
أحمد يزيد توته، التوتر الأكبر كان من نصيب سيده، شكل
فيه بعض قواد جيشه، وانسحبوا بجنودهم ولاحت في الأفق
سحابات من التدمير بين باقي الجنود والعربان، أوشكت مؤنthem
على النفاذ أو نفدت بالفعل، وكل يوم ازدادت دمنهور تحصناً،
أطلق الألفي يد رجاله في القرى القريبة يجمعون ما يستطيعون
جمعه من علف وغلال.

شاهد أحمد قرى تنهب بأم عينيه، فلا حون فقراء لا يملكون
شيئاً إلا بقرة هزيلة أو غنمات قليلة، تؤخذ أمام أعينهم ولا
يستطيعون الدفاع أو الاعتراض، حتى الدجاجات جمعت، هدموا
بيوت من شكوا فيهم، ثُبّبت المحلات رغم فقر بضاعتها، ولو
حاول أحدهم أن يخفى شيئاً من قوت عياله؛ كان الجلد بالسياط

أقل عقاب يناله، دمعت العيون، وجاع الصغار والكبار، مات من لا يستطيع جسده الهزيل أن يقاوم الجوع أو الجلد، كلّ هذا من أجل أن يعتلي شخص العرش، تمنى وقتها أن يمتلك سُمّ مقبل، لا ليضعه لهؤلاء الأوغاد، بل ليحتسيه كله حتى آخر قطرة، ينهي حياته ويتخلص من آلامه، قلبه الضعيف لا يتحمل كلّ ما رآه، لم يعد قادرًا على أن يرى كلّ هذا الظلم، بحث عنه في كلّ مكان يمكن أن يكون قد خباء فيه، لكن لا جدوى من البحث، كلّ ما عليه الآن هو أن يُتبلّ تلك العنتزات، ويجهزها للشواء وبسرعة؛ فالسادة جائعون.

بعد العشاء الدسم قرر الألفي أن يتريض قليلاً، السماء صافية والهواء نقى ومنعش، قد يساعده صفاء الجو على التفكير في مشاكله الجسم، جيشه يتأكل، أغبياء وقصيرو النظر ينظرون تحت أقدامهم ويقفون بجانب من يدفع، لا من يدافع عن مصالحهم، وهو قد أوشك على الإفلاس، عليه أن يحقق أيّ نصر حتى لو كان شكلياً، إن لم يفتح دمنهور ويدخلها؛ سيتفرق من بقي منهم معه، تلاحقهم الهزائم والفشل في الآونة الأخيرة، ووصلت له أخبار هزيمة «رجب أغا» وياسين بك في المنيا، لقنهم عابدين بك درساً في القتال، لو كانوا انضما إلى جيشه؛ لقويت شوكته، ولتمكن من اقتحام ذاك الخندق اللعين، الذي يلتف حول دمنهور، وبعدها كان من السهل عليهم أن يدكوا أسوارها، لكتها الفرقة، المسamar الأول في نعشهم، ملأ رئتيه

بالهواء العليل، وحزم أمره بأنّ لا عائد من هذا الحصار، غداً ينهيه ويعود أدراجه منتظراً أن يبرّ الإنجليز بوعدهم، ويرسلون له التجريدة في أقرب فرصة، وعن قريبٍ سيعتلي عرش مصر، كما أنها ستكون فرصة رائعة لجذوده، فسيحتكون احتكاكاً مباشراً بالعسكرية الحديثة، التي يحاول جاهدًا تعليمها لهم، لكنهم اكتفوا فقط بالشكل الخارجي لها.

قبل أن يتنفس الصباح، كان القصر الخشبي مفكّاً ومحملاً فوق الجمال. وقف أحمد يشاهد العمال وهم يفكّونه بسهولة، ويحملونه فوق الإبل في سرعة ونظامٍ، إنّه لمن العجائب، قصر يُبني ويفكّ في سويقات قليلة، وينقل بكلّ سهولة ويسرٍ، حقّاً إنّ هؤلاء الأُمراء يحيّون حياة رغدة، لا ينقصهم شيء من متع الدنيا إلا ونالوه.

وقف رجال البasha على أبراج المراقبة، متحصّنين بسور مدینتهم، يراقبون الحركة في معسّكر الألفي، تهامسوا فيما بينهم متسائلين، هل سيرحل هؤلاء اللصوص فعلاً؟ أم أنها مجرد خدعة من كبارهم؟ لم يهتموا بالإجابة على تساؤلاتهم، فلو كان راحلاً لعادت الحياة لطبيعتها في بلادهم، ورجع أولاد البلد إلى القاهرة من حيث أتوا، فشجارهم لا ينتهي، وبداءتهم لا حدود لها، ولو كانت خدعة من زعيمهم؛ فهم مطمئنون خلف أسوارهم القوية، ويكفي دعاء الصالحين لهم ليردّ عنهم كلّ شر.

كجراد جائع جامح لا حدود لجشعه هبط جيش الألفي دون
 رحمة على قرية صغيرة ودخلوها دون أي عناء، دقائق قليلة
 وقلبوا وردا¹⁰ رأساً على عقب، اقتحموا البيوت دون استئذان
 ونهبوا ما فيها من طعام، هاجموا الزرائب وسحبوا ما فيها
 ليضموها لقطيعهم، لم يكتفوا بذلك، فطالبو الأهالي بالدرارهم،
 ومن أين لهؤلاء المساكين بها؟! لم يترك الملتزمون لهم ما يكفي
 معيشتهم، جمعوا مقدماً ضرائب السنة القادمة، تلبية لأوامر
 البasha، ليأتي هؤلاء المجرمون لينتزعوا من أفواههم ما لم يكن
 يشعّ لهم.

من فوق تلة صغيرة مشرفة على القرية صَلَى أَهْمَدُ الضَّحْىِ،
 ودموعه تبلل الثرى، ووقف يشاهد ما يفعله مماليك الألفي،
 الدخان يتتصاعد للسماء، أحاط الفزع سكان المكان، انفتر
 قلبه على امرأة صغيرة، دُهِسَ ابنها تحت سنابك خيل الجنود
 حتى خرجت أمعاؤه، جلست بجانبه تلمم أشلاءه، تصرخ وتنشر
 التراب على رأسها، نزل جندي من على فرسه، ووقف بجوارها
 وهو ينظر لها في عجبٍ، على ماذا كُلَّ هذا العويل؟! إِنَّهُ مجرد
 طفل وقد أرحناه من تعب هذا الحياة القاسية، لقد قدمنا
 لكِ وله معرفةً يجب أن تشكرنا عليه، لا أن تتوّجِي هكذا، ألا
 يقتل منا نحن من أجل أن يحكمهم رجلنا؟ هكذا حدث نفسه،

10- إحدى قري مركز أمباببة بالجيزة تنسب إلى ورداً مولى عمرو بن العاص.

انحنى عليها ونزع قرطاً نحاسياً كان في أذنيها ظناً أنه ذهب، يا
لغيائكم أيها القساة! كيف لقوم لا يجدون ما يكفي قوت يومهم
أن يكتنزوا الذهب أو يمتلكوا منه ولو حتى القليل؟! إنه الغباء
الذي يؤلد من رحم الطمع، والظلم هو الابن الشرعي للاستبداد،
نزعه من أذنيها وشقهما من أجل قطعة من الصفيح، عندما علم
أنه ليس إلا قرطاً نحاسياً رخيصاً، ألقاه في وجهها بعد أن كال لها
الشتائم، وبصق في وجهها الدامي أكثر من مرة، بعد عدة ركلات
في جانبيها لترقد هي الأخرى قتيلة بجانب فلذة كبدها، يعرف
أحمد هذا المملوك جيداً، إنه شيروان شاب في مثل عمره،
جشعه لا حدود له، ذو شره عظيم للأكل، في كل ليلة يحضر هذا
الشيروان، ويوقظه من النوم ليطلب مزيداً من الطعام، ومهما
أكل لا يشبع، لم يترك مكاناً نزل فيه إلا وكان أول من يتحرش
بالنساء، ويحاول اغتصابهن، وكثيراً ما تنجح محاولاته.

كيف يمكن للألفي أن يحقق العدل في ربوع البلاد كما كان
يتصدق دائماً؟! لقد سمعه أحمد أكثر من مرة وهو يقسم بأنه
يحب هذا الشعب، وسيعمل جاهداً من أجله، إنه مجرد كاذب
أفّاق، وما هو إلا ثعبانٌ خطيرٌ بعيون ذئبٍ، وأنياته ضبعٌ وذيل
عقربٍ، جمع كل شرور العالم بين حاجبيه، يتمسح في رداء العلم،
الذي اغترف منه غرفة أو أقل، بعد أن شاب شعره، وهل يمكن
لأحد أن ينسى تاريخه الدموي؟

في هذا اليوم جدّ أحمد في البحث عن زجاجة السم، لا ليشربها كما كان ينوي من قبل، بل ليصبها في حلق الألفي ولو بالإكراه، لكن الحظ لم يحالفه كعادته، فلم يجد السم، لا بد أن هناك بديلاً، فعلى حدود هذه الحقول والترع، هناك ما هو أقوى من سمّ مقبل، سيجمع بعض الفطر السام، ويضيفها في عشاء هذا السفاح، لو مات لتفرق شمل هذه الشرذمة الضالة.

كما بدأ الاقتحام فجأة انتهى كذلك، ترك المماليك الشوارع للأهالي ليجمعوا جثث موتاهم، وإنما سيتخلصون منها في الترعة، وعلى عجلة غسلوا موتاهم، وصلوا عليهم، وذهبوا بهم بعيداً خارج البلدة لدفنهم، أنهوا مراسم الدفن، لم يقيموا ليالى العزاء، دعوا لهم دعاء حاراً بأن يغفر لهم الله ذنبهم، وأن ينتقم لهم ممن قتلهم دون ذنب، لم يعودوا لديارهم، بل فروا في بلاد الله، عندما لا ينبت في حضن الأم إلا الأشواك؛ يصبح هجرها فرض عين، هكذا تهamsوا فيما بينهم وهم يعبرون النيل نحو المنوفية، أما من فضل الأشواك فر إلى الحقول على أطراف القرية.

احتسبت الشمس خجلاً مما فعله بنو البشر، لكن على أحمد أن يقوم بعمله، الغلال متوفرة، اللحم كثير، والخضار الطازج جمع من الحقول القريبة، أشعل النار تحت الأواني الكبيرة، وبدأ في عمله، يوم كئيب وجو خانق، لا شيء يدعو للبهجة

التي يسمعها من حوله، هؤلاء القوم يجدون هناءهم في شقاء الآخرين، أنهى عمله، وأكل المحاربون وشبعوا، لكنهم لم يشعروا من دماء ضحاياهم بعد.

حان وقت القصاص، سيجعل أحد وجباته القادمة سيف الحق، وسينتقم لكل الأرواح المعدبة التي أنهكتها الظلم والقهر والاستبداد، سيتبيل اللحم بالأعشاب السامة، سيطهوها بنيران الكراهية سيعرفها في صحنون الحقد، سيتناولها أستاذهم وكبار قواد جيشه، ستتقطع أمعاؤهم، ستنزف حتى الموت، وقتها سيشعر بالرضا حتى لو كان الخاوزق عند تل العقارب نهايته المحتومة.

في الظلام، عبر الحقول، بدأت رحلة البحث، ممسكاً بمصباح زيني صغير ليرشده، من الصعب أن تجد طلبك إذا كان الفلاحون ماهرين، يتخلصون أول بأول من تلك الأعشاب السامة، حتى لا تتناولها بهائمهم عن طريق الخطأ، عليه أن يبحث بدقة وعناء، حتى يجد مبتغاه، وأخيراً عند حقل بعيد في الطرف الغربي وجد القليل من طلبه، اقتلعه ووضعه في كيس قماشي علقه في خصره، عاود البحث مرة أخرى فالاعشاب التي وجدتها ليست بالكمية الكافية، حول جذع نخلة قصيرة بالقرب من جرف قناة رى صغيرة وجد كمية لا بأس بها من الفطر السام، سيضعه في طواجن الخضار التي يحبها الأوغاد، ولن يشعروا بوجودها، وسينتهي الأمر.

جمع الفطر، ووضعه في كيسه، وقف واستدار، ليجد أن موته
يبدو أقرب له من الكيس المعلق في وسطه، شIROان يقف خلفه،
والحنق سيطر عليه، أمسك بتلابيبه وهزه بعنف وهو يصرخ في
وجهه:

- ماذا تفعل هنا أيها الوغد؟ لماذا غادرت المعسكر تحت
جُنح الليل يا حقيير؟ هل واعدت إحدى مومسات هذه القرية؟
كم ستدفع لها؟ من أين أتيت لها بالمال؟ أمّ أنك ستمنحها بعض
الطعام مقابل مضاجعتها؟ لا بد أنه في هذا الكيس، أعطني إياه
الآن فأنا جائع للغاية، لماذا لا تجيبني أيها الأبله؟

لم يتوقف شIROان عن هزه بعنفٍ، حتى بعد أن توقف سيل
أسئلته، كان من الواضح عليه أنه ثمل، رائحة الخمر تفوح من
فمه الواسع، إنّها نفس الرائحة التي كان يشمها من فم عالم
بونابرت «فانسان»، الذي خدمه لعامين، لكنه عندما كان يثمل
غالباً ما كان يصمت أو يبكي، وبعد أن يفيق يشعل شمعة أمام
تمثال للمسيح وهو مصلوب، يجثو على ركبتيه، ويتمتم بكلمات
مبهمة، والدموع يفيض من عينيه، أما هذا العربيد لا تعرف
الدموع طريقاً لعينيه، لا يكف عن الصياح، سقط أحمد على
الأرض، جثا مهاجمه على ركبتيه لينزع منه الكيس، برز مقبض
الخنجر الصغير الذي علقه النهم في حزامه، نزع شIROان الكيس
من خصر أحمد قبل أن يفتحه؛ انتزع الملقي على الأرض الخنجر

وبسرعةٍ غرسه في صدر الجندي المملوك، ليixer على الأرض
مخضباً في دمه، نهض ماسك الخنجر وطعنها طعنات عديدة
حتى تأكد من موته، وترك أداة قتله مغروسة في صدره، والكيس
في يديه وهرول عائداً لينام، أو ليتعايش مع كوابيسه المرهقة
المؤلمة.

(21)

العفو

تخلص أحمد من ملابسه فحرقها حتى لا يخرج له عفريت شIROان ويختنقه، لكنه لم يتخلص من خوفه، لم يذق النوم طوال الليل، كلما حاول أن يغمض عينيه تخيل شIROان يُقيده إلى النخلة القصيرة، التي قتله تحتها، ويتناوب على اغتصاب أخيه، وابنة خالته أمام عينيه، صراخهما يصمّ أذنيه، وهو عاجز أن يفعل لهما شيئاً، طال ليته وجافاه النوم، لازمته كوابيسه ولم تفارقه.

سيكتشفون غياب رفيقهم، وكيف لا يكتشفون وهو أكثرهم ضجيجاً؟! ومع قليل من البحث سيجدونه ملقى تحت هذه النخلة اللعينة، تبأ للشيطان لقد نسي كيسه القماشي في يد مقتوله! سيتعرفون على قاتله بمنتهى البساطة والسهولة؛ فالكيس من نفس قماش جلبابه، سيصلبونه ويقطعون أطرافه قبل أن ينهوا حياته، ربما علقوه على مشنقة وأشعلوا النار من تحته؛ لتأكل أطرافه، وبالتالي تأكيد

سيجدون أنفه ويقطعون أذنيه ويفقاون عينيه قبل أن ينفذوا فيه الإعدام، تحمد الدم في جسده، امتصع لونه وغارت عيناه، لقد فقد حياته وشبابه مقابل عنيد لا يساوي شيئاً، لو كان ذلك مقابل رأس الألفي لكان له الفخر، من بضع سنين حسد الحلبي على ميتته، لقد فاز بالجنة والمجد، لكنه سيموت بطريقة أبشع دون عائد يذكر.

غادر فرشته بهدوء، وحزم أمره على الهرب، سيتسلل تحت جنح الليل من المعسكر، سيختبئ في الحقول يوماً أو يومين، وهناك سيتدبر كيفية خروجه من هذه المنطقة؟، أزاح طرف باب خيمته، الظلام دامس، الهواء بارد، ارتجف جسده، تلفت حوله، ليس هناك شيء إلا صوت مساعدته عكرش غارقاً في النعاس في خيمة المؤمن المجاورة، شاب لا علاقة له بالمطبخ إلا ازدراد ما يجده في الأواني، أو ما تبقى من وجبات السادة، وجده يعمل في مطبخ الألفي قبل أن يتحقق هوبه.

في الطرف الآخر من المعسكر خيمة الألفي، مصباح شحيح النور يرمي بالظلال أكثر من النور داخل الخيمة، لعله نائم الآن يحلم بعرش مصر، تمهل قليلاً قبل أن يطلق لسابقه العنان، داعبته فكرة مجنونة، هو في كل الحالات مقتول دون رحمة، لماذا لا يحقق هدفه الآن؟ كل ما عليه أن يزحف للخيمة المضيئة، وبهدوء ينحر الزعيم، لو تمكن من الهرب بعد ذلك خير وبركة، وإن لم يستطع فليكن لموته ثمن مناسب، نظر نحو السماء السوداء تماماً، وكأن

النجمون قد سرقت أو سافرت لسماء أخرى، هل ستنتير فوقه مرة أخرى؟ تساءل وفي قلبه غصة.

تراجع عن فكرة التخلص من الألفي، فلا بد أن هناك حراساً يقفون بالقرب من خيمته، سيقبحون عليه قبل أن يقتحم عرين الأسد، ويقدمونه قرباناً لطاغوتهم، عليه أن يتحرك بسرعة، ودون أي جلبة حتى لا ينكشف أمره، قبل أن يخطو خطوة واحدة انفتح باب خيمة الرعيم، وخرج منها شبح، تسمى في مكانه، لم يقدر أن يحدد في أي اتجاه يمشي الشبح، ثوانٍ قليلةٍ كانت يده على كتفه تجره برفق نحو الخيمة المضيئة.

اكتشفوا فعلته دون شك، كل ما عليه أن يعترف أمام أستاذهم، سيصدر الحكم بطريقة قتله قبل أن يكمل اعترافه دون إرادة منه مشى مع صديق شيروان المقرب، الذي لم ينبع بكلمةٍ، نظرات عينيه كفيلة بإثارة الرعب في قلوب الموتى.

فتح الجندي بباب الخيمة، وتقدم داخلاً، لحظات ثقيلة مرت على أحمد ك ساعاتٍ طوالٍ، يتهمسون داخل الخيمة في طريقة إعدامه، حقاً هو لا يسمع ما يقولون، قلبه يرشده وهو أبداً لم يخدعه يوماً، سمع صوت الألفي كهزيم الرعد ينادي عليه، ارتجف بدنها، وسابت مفاصله، وهو يجرجر قدميه داخل الخيمة، نظر الأستاذ له بطرف عين أجدها السهر، وقال بصوتٍ متعمِّدٍ:

- سرحد مع بعض جنودنا قبل الفجر، ستصطحبك معنا، اذهب
وجهز الأدوات الازمة لطبخ هذا الطعام الغربي، إن لم يعجب
طبخك ضيفي تأكد أن نهايتك قد حانت.

التفت لجندى آخر على شمالة، وبدأ يعطيه الأوامر، وقف أحمد
مذهولاً.. لا يصدق ما يسمع، لم يكتشفوا بعد مقتل صانع الجلبة
في المخيم، أو ربما اكتشفوا والأمر لا يهمهم، هم معتادون على
ذلك، يقتلون ويُقتلون، صاح جندى على يمين الألفي به:

- لماذا تقف هكذا؟ هيأ بسرعة جهز عدتك، الوقت يداهمنا أيها
المتختلف.

خرج من الخيمة، أسرع نحو الخلاء، كان على وشك أن يبول
على نفسه، شعر ببرودة مفاجئة على قفاه، بجانب شجرة وقف،
ارتعش جسده، والبول لا يتوقف عن الخروج، وبسرعة ذهب لخيمة
المطبخ، أشعل المصباح المعلق في وسطها، وجمع كل ما يحتاج
من أدوات ومؤن، أخرجها من الخيمة، حزمها ونقلها لعربة صغيرة،
شدّ عليها حصان عجوز ولم يطل انتظاره، ما هي إلا لحظات وتجمّع
الجنود وعلى رأسهم الألفي بملابس الفحمة، وسيفه الكبير بمقبضه
الذهبي والمزين بفصوص من الياقوت، تعالى صهيل الخيول معلنة
بدء الرحلة لولا دخول جندى يسحب حصانه خلفه وعلى ظهره جثة
مغطاة بقطعة من الخيش، اقترب الجندي من قائده وهو مطاها
الرأس، سارع الألفي بسؤاله:

- من هذا؟

- شيروان.

ترجل الألفي من على جواده، رفع الخيش، كانت جثة شيروان
عارية تماماً، عاود استجواب الجندي:

- أين وجدته؟

- هناك في شمال القرية تحت نخلة، يبدو أن بعض الفلاحين
اجتمعوا عليه وقتلوه ثم سرقوا ملابسه، وقطعوا علامة رجولته
ووضعوها في فمه.

أعاد الألفي النظر إلى جثة شيروان، تملكه الغضب تماماً، وحاول
أن يسيطر على أعصابه، لكن هيهات، فعندما يتملكه الغضب لا
تجدي أي محاولة لکبح جماحه، نظر نحو السماء قبل أن ينطق
بحرف، وكأنه يستحضر روح القتيل ليسألها عن ما يرضيها كثأر
لمقتله:

- بعد أن تنتهيوا من غسله والصلاحة عليه ودفنه، ابحثوا عن أي
فرد من أبناء هذه القرية التعيسة لا بد أنه القاتل، لا تقتلوه، اجعلوه
يتمنى الموت ولا يدركه، وإن وجدتم أكثر من واحد فهم شركاء في
الجريمة، أطيلوا عذابهم قدر المستطاع، اجعلوهم مثلاً وعبرةً لمن
لا يعتبر، وفي النهاية اقتلوهم بالتنصيص.

قفز برشاقة على صهوة جواده، تحرك الجيش الصغير المصاحب له على مهل وخلفهم أحمد جالساً بجوار أدواته، امتنع وجهه عندما علم أنهم عثروا على جثة هذا المملوك الودغ، تسارعت أنفاسه وجف حلقه، سقط قلبه عند كعبه، شعر وقتها أن ملك الموت يحوم فوق رأسه يكاد ينقض عليه، لكن دقات الطبول شتت كل الأوهام التي حامت أمام عينيه، فاد العربية عبد ثرثار، لم يتوقف عن الحديث مع غكرش، الذي جلس بجواره.

لم يوجهوا له أي اتهام، عثر عليه فلاح أو أكثر من أهل القرية، خلعوا ملابسه وسلبوا سلاحه، وبالتأكيد لم يتركوا الكيس القماشي، ولم يكتفوا بذلك لكنهم قطعوا قضيبه، وأطعموه إياه، ارتاح لهذه الفرضية، تنفس الصعداء وراح في نوم عميق جوار الحل المعدنية التي زاد ضجيج اصطاكها بعض، النوم سلطان، له الكلمة العليا، وما علينا إلا الطاعة.

ساعات من السفر المرهقة، حتى وصلوا حوش عيسى، توقف الجندي بعدهم بقليل، وصلت عربة المطبخ وعربات أخرى للفراشين، في خلال دقائق قليلة كانت خيمة مربعة مزخرفة باللون زاهية منصوبة ومفروشة، جلس الألفي أمامها يتابع إنشاء معسكره الصغير. في أقل من ساعة وقبل زوال الظل كان كل شيء جاهزاً، دخل الأمير خيمته يدخن نرجيلته، تفرق الجنود في خيامهم ليستريحوا وأسرع أحمد في تجهيز وإعداد المطلوب.

سويعات قليلة ووصلت لمسامعه دقات الطبول، لقد وصل أحد الضيوف بكل تأكيد، أسرع يستكشف الأمر، رجال بيض يضعون قبعات غريبة على رؤوسهم، يحيطون برجل نحيف، يميل للطول قليلاً في مثل لون بشرتهم المشربة بالحمرة، يضع نظارة ذات إطار ذهبي على أنفه وينظر حوله في ثقة، خرج كل من دخل خيمته منذ قليل، اصطفوا في طابورين، تلمع سيفوفهم في شمس العصر، واقترب من خيمة الألفي، الذي وقف متبسماً خارجها في استقبال القنصل الإنجليزي، تصافحا ودخلوا وحدهما الخيمة ومعها المترجم، دخل رجال القنصل وكبار جنود الألفي في خيمة أخرى كبيرة، ينظرون في إعجاب إلى المسدسات المزخرفة المتدرية من أحزمة الأوربيين، أسرع أحمد ليستكمel عمله، جمع كل خبراته اليوم، ونفذ وصفات زوجة العالم الفرنسي بكل دقة.

وضع السماط على منضدة مرتفعة، فهو يعلم عاداتهم كلها، ورصفت الأطباق بطريقة معلومة؛ بجانبها الملاعق والشوك والسكاكين الفضية مرصوصة بطريقة بد菊花، رائحة الطعام أثارت شهيتهم، ومع ذلك لم يكن لها أي تأثير على قادة الشرق أو أميرهم، الذي جلس على رأس المنضدة ليشارك جناب القنصل وجنته على مضض منه، ومع ذلك تقاد الفرحة تقفز من عينيه، ظن أحمد أن عمله يعجبه، لكنه كان سعيداً بالرسالة الصادرة من البلات العثماني، بالعفو عن الأمراء المصريين.

على الفور وما إن انتهوا من طعامهم حتى أغدق على أحمد بكيسٍ من الدرارم، لم يصدق نفسه فهو لم يحلم يوماً بأن يمتلك مثل هذه الشروة، أرسن ظهره إلى عامود خيمته، وأخذ يهز الكيس بين يديه، ويستمع لصوت الدرارم وهي تترافق بداخله، وقد عاودته حالة من الحزن على أهله وغيابه عنهم.

قُرِعَت الطبول مرة أخرى لتتمازج مع صوت طلقات المدافع في صحبٍ مفزعٍ، خرج الألفي من خيمته، مشى وسط ساحة معسكته كطاووس مغزور، وحوله جنوده فرحين يودعون الأوربيين بحرارة، لم يكتفي بهذا بل أرسل معهم كبار رجاله ليصطحبوهم للصعيد، العفو يشمل النساء هناك أيضاً، شعر بالزهو وغاص في أمانية بأن يجتمع حوله كل النساء، ليعتلي العرش ويعيده للمماليك بعد قرون طوال.

يعلم جيداً أنهم لن يتلفوا حوله ويفيدوه إلا إذا حق نصراً بينما على غريمة، ثم عليه أن يغريهم بالمال والمناصب، سيعدهم الآن بذلك، ويبذل بوعده عندما يصبح الوالي، لكن الآن وحالاً، يجب أن يجعلهم على الحياد، لا منضمين له ولا مائلين للأخر.

عاد لخيته وطلب كاتبه، أملأه رسائل طويلة، متنّ فيها شيخ الأزهر وكبار التجار ومشاهير الناس بالخير الوفير، بعد أن زف إليهم خبر رضا الباب العالي عليهم، لم ينس أيضاً مكاتبة شيخ قبائل العربان؛ فعدوه اللدود يستخدمهم كثيراً، كانوا يدينون له بالولاء، إلا أن الثعلب الماكر عرف كيف يستميلهم بالمال ومعسول الكلام.

للمال بريءٌ ساحرٌ يمهد الطرق الوعرة، ويجعل العدو صديقاً،
ويقلب المناوأة لحليف، والباشا أدرك ذلك جيداً منذ زمن بعيد..
عمله بالتجارة علمه كيف يشتري الذمم، وله في ذلك باع طويل،
جلس في بيته وحوله مشايخ العربان، يكرم ضيافتهم، ويرحب
بهم، ويسمع ما كتبه الألفي لهم، الذي طلب منهم أن لا يساعدوه
في تنقلاته، تبسم وهو يسمع كلامه، حلاً فخده بيده وهو ينعته
بالكاذب المجنون، أهداهم من ثمين ما عنده، خرجوا يسبحون
بحمده ويشعرون في كرمه، ولمَ لا يفيض عليهم بكرمه والمال
يجبيه له الملتزمون من دماء الفقراء والمعدمين مقدماً عن السنة
القادمة؟! وهل كانوا قد رأوا خيراً هذه السنة حتى يحصل على
القادم من الأيام؟!

(22)

ذكريات

داعب نسيم يونيتو أعلام السلطنة العثمانية المعلقة فوق
صواري سفنها الحربية الراسية مقابل شواطئ الإسكندرية،
وقف قبودان باشا ينظر نحو أبراج الثغر، ذهب بفكره بعيداً،
عندما كانت تلك المدينة قبلة العالم وحاضره، حاكوا حولها
الأساطير والحقائق وبها تغنووا

«إسكندرية ماريا وترابها زعفران».. ليست المرة الأولى له
في الإسكندرية، فقد زارها من قبل، عندما كان ضابطاً صغيراً
في البحرية العثمانية في صحبة أحد الولاة، سار في شوارعها
الضيقة، تعجب كيف لهذه الخرابة أن تكون ماريَا؟! لكنه أدرك
أن جمال المكان وسحره في أشياء لا يستطيع لمسها، ويصعب
عليه وصفها، ربما بوافي البنيات الرومانية، أو تلك الفتاة
التي أعجبته، عندما كان في السوق بشعرها الأسود القاتم،

وعينيهما العسليتين، وحصرها النحيل، وأرداها الممتلئة، وقد تكون تجمعات الصيادين وأهازيجهم، التي يدعون فيها الله أن يرزقهم من حلاله، هو نفسه لا يعرف ما سبب تعلقه بهذا المكان، قطع صوت موسى باشا حبل ذكريات القبودان قائلاً:

- متى سنتوجه إلى القاهرة؟

نظر قبودان باشا نحو من يحدثه، بعد أن انقضت غمامه الذكريات من فوق رأسه، تنهى تنهيدة صغيرة وما زالت ابتسامته تداعب شفتيه:

- عن قريب موسى باشا، اطمئن، فُرعش مصر يشتق إليك.

هدأت هذه الكلمات بعض الشيء من روع الرجل، دفع الكثير من أجل هذه اللحظة، وعليه أن يستمتع بشمس يونيتو، ونسيم الصباح، قبل أن ينهمك في مشاق الحكم، واستعادة ما دفعه من رشاوى حتى يُصدر له فرمان تعينه، لكنه يشعر بأنّ قبودان باشا يضمّر شيئاً في نفسه، لا يريد أن يفصح عنه، ملأ صدره بهواء المتوسط المشبع برائحة الملح والرطوبة، زفر بقوة وهو ينظر لعلم سلطنته يرفرف فوق صاري البارجة، متخيلاً أنّ زفيره هو ما يحركه.

نظر قبودان باشا نحو رفيقه الغارق بأوهامه، هذا المسكين يعتقد أنّ خليفة المسلمين حرك كلّ هذه القطع البحريّة من

أجل أن يعتلي هذا المغبون عرش مصر، ألا يعلم أنَّ السلطان منحه صلاحيات كاملة؟ قد يعين هذا الذي يقف بجواره في الحكم، وربما يولي محمد بك الألفي، ليعتلي سدة العرش في مصر بناء على رغبة الإنجليز أصدقاء السلطنة، ولو اقتضت المصلحة أن يثبت محمد علي على عرش مصر لن يتأخر في هذا، لكن أي مصلحة يقصدها؟

قد تكون مصلحته الشخصية، وربما مصلحة الباب العالي، الذي تحيط به المكائد من الداخل والخارج، وربما مصلحة أصدقائه الإنجليز، كلّ هذا سيتوقف على ما ستظهره تلك الأيام القريبة، من سيُقدر مجده ويجزل العطاء هو من سيعتلّى العرش بالطبع.

لا يهتم كثيراً بالوقت، حياة البحر علمته أن العواصف قد تطول، لكن لا بد أن تنتهي وقتاً ما، لا يهم متى ستنتهي، فكل ما يشغل باله وقتها هو المحافظة على موقعه دون أي خسارة، لكن ما إن تتوقف؛ عليه أن يحدد كيف يستفيد مما حدث؟ كل ما يدور حوله، هي معارك مختلفة الأنواع متباعدة الطبائع، يديرها بحنكته، ليحقق منها أكثر ما يمكن قناته.

ثلاثةٌ يتناحرُون ويتشارِجون، ويحركهم شبق السلطة، وكل منهم طبيعته، هذا الذي يقف بجواره، والذي يطمع في استعادة ما دفعه مضاعفاً، محمد بك الألفي الذي رمى

نفسه في أحضان الإنجليز؛ عليه يعيد مجد الملوك القديم، الذي زال على يد سلطان عثماني منذ قرون عدٍ، وابن كفالة، الذي وصل لسدة الحكم على غير العادة، دون أن يغرم قطعة ذهبية واحدة.

ماذا لو كان الأمر بيد قبودان باشا؟ هكذا فكر البasha، وهو يحرك يده على مقبض سيفه، من سيختار من بين هؤلاء الثلاثة؟ بالطبع وبكل تأكيد لن يقبل هذا الألفي واليَا على أي ولاية عثمانية، خاصةً لو كانت مصر، ولاؤه للإنجليز واضح وضوح شمس الإسكندرية هذه، وطمئن البريطانيين في سلطنتهم أكثر سطوعاً من شمس هذه الظهيرة، بالطبع لن يقع اختياره على ابن كافالا، تحدي خليفة المسلمين وخادم الحرمين مرتين، الأولى عندما لم ينفذ فرمان ولاية جدة، والثانية وهي الأخطر عندما وافق أن يتولى ولاية المحروسة قبل صدور فرمان سلطاني بذلك، هذا لا يعني أنه سيوافق على تعين هذا الموسى، هو لا يختلف كثيراً عن معظم الولاة الذين يديرون الولايات العثمانية، مجرد قادة عسكريين انتصر من انتصر، وانهزم من انهزم منهم في ميادين القتال، لا علم لهم بأصول الإدارة أو فنون السياسة.

نظر نحو العلم المرفوع على صاري بارجته العسكرية في عزّة، ثم تذكر مجدًا قدِيماً، حينما كانت تتوقف الكنائس

الأوروبية عن قرع أجراسها على طوال شواطئ البحر المتوسط عندما تمر أي سفينة ترفع مثل هذا العلم، عاودته ذكريات لم يعشها، لكنه سمعها كثيراً، تلك أيام لن تعود أبداً طالما يتولى موسى باشا وأمثاله منصب نائب السلطان بأوامر سلطانية.

(23)

الزحف المقدس

لم يتوقف صياح الألفي من داخل خيمته، تجمع الجنود حول الخيمة،
ولا يجرؤ أحد على الدخول، فهم يعلمون جيداً أن الشيطان نفسه لا يستطيع
أن يشارك أستاذهم هذه الخيمة في لحظات غضبه، طالت اللحظات وصارت
دقائق، والسباب لم يتوقف:

- أغبياء، حمقى، أرسلت ثلاثين حصاناً، أربعة آلاف رأس من الغنم، مئة
من الجمال المحملة بالذخيرة، والكثير من الأقمشة، كل هذا مجرد هدية
بسطحة كدفعه أولى لقبودان باشا، ألا يعلمون أن عرش مصر يستحق أكثر؟!
ألف وخمسمائة كيس من الذهب، تعهدت أن أدفع ثلثهم، وتتكلف باقي
بيوت المماليك بالمتبقي من المال، لكنهم معاطيه لا عقول لهم، فقط يفكرون
بمؤخراتهم المترهلة.

عم الصمت المخيم، إلا من بعض الهمميات الجانبيّة بين جنود الألفي،
وقف أحمد ليس ببعيد عنهم منصتاً لا يفهم معظم ما يسمع، أرسل البك هدايا
لقبودان باشا، وتعهد بدفع أكياس ذهبية سيشاركه فيها الأمراء المصريون،
رفضوا ذلك وطلبوا أن يدفع هو المبلغ كله وحده، عاد الصخب مرة أخرى من
داخل الخيمة المربعة، ليقول:

- يحسدونني لأنّي أراسل السلاطين والوزراء! ويلومونني لأنّي أسعى إلى
استعادة عرش المحروسة، ملاعين أفاقين، سينقرضون كما تنقرض الحيوانات
الغيبة الغير قادرة على فهم المستجدات، وهؤلاء الشيوخ أولاد الحرام الآن
يتبرأون مني، لا يردون على رُسلي، صدق فيهم قول البرديسي: ما هم إلا عرائس
يحرّكها من يعتلي العرش، ذات يوم سأحشو رؤوسهم بالتبين وأعلقهم على أبواب
القاهرة.

كسا الغضب وجوه أمراء وجنود البك، لا يستطيعون أن يروا أستاذهم في
هذه الحالة ويقفون مكتوفي الأيدي، لو طلب منهم نقل المقطم لفعلوا، ليخرج
لنا ويأمرنا أن نحول القاهرة إلى مجرد ركام وسنفعل، لو أمر أن نأتي له برأس
الشيوخ الآن لتسابقنا في جزها، ويكتفي أن يشير ونحن نسرع في الانصياع، لكن
الصوت من الخيمة عاد للارتفاع:

- من سيهي بالتزاماته هو من سيعتلي العرش، اللبناني يدرك ذلك جيداً، لم
يغب ذلك عن ذهني أيضاً، من سيسبق ستكون الفرصة له، وأنا سابق بخطوةٍ
بل خطواتٍ، فرمان بالعفو عننا، وفرمان سلطاني بنقل الثعلب إلى سلانيك، نعم
هناك فرمان آخر بتعيين نائب للسلطان غيري، لكنَّ ألفاً وخمسمائة كيسٍ من

الذهب قادرة أن تجعل هذا الفرمان لا قيمة له، مبلغ ليس بكثير يسهل جمعه إذا ما تعاون معه المناكيد، أيعتقدون أنني لا أستطيع أن أواجه هذا الأمر وحدي؟

انزاح باب الخيمة، وخرج الأستاذ لجنوده، أحمر العينين، منتفخ الأوداج،
شعره مهوش، بكمال ملابسه العسكرية، في يمينه سيفه وفي يساره خوذته، نظر
فوجد جنوده كأنهم عفاريت من الجن خرجوا من قماقهم، تملأهم الحماسة
وينتظرون منه الأمر ليلبوا النداء، وقف وسطهم وأصابته روح الحماسة، التي
استشرت وسط أتباعه، صاح فيهم مُحَمَّساً:

- نحن قاب قوسين من العرش، ستتصبون سناجق وكشافين، سنحكم قبضتنا
على البلاد من شمالها إلى جنوبها، ستمتنئ خزائنكم بالذهب والفضة، وستعمّر
قصوركم بالحرير من كل جنس ولونٍ، سنستعيد مجدنا الأول، لن نترك بلادنا من
أجل هذا اللبناني، سيعود الشيوخ لكنفنا، ما إن أدخل القلعة؛ سيسارعون ليعلنوا
البيعة ويدعون لي على المنابر، أؤكد لكم هذا، لكن هذا يحتاج لكافٍ شديدٍ،
نبحث عن نصر قريب يجعل الكل يعرف بأمسنا.. هل أنتم مستعدون؟

اشتعل المعسكر بالحماس، الكل يعلن جاهزيته بطريقته، طلقات نارية تشق
السماء، سيف مشهورة تلمع في سماء الظهيرة، حناجر ألهمها الهتاف، وبسمة ثقة
علت وجه الأستاذ وهو يضع خوذته على رأسه، مشيراً ببداية الزحف المقدس
نحو عرش المحروسة.

(24)

النجيلة

في صفوف منتظمة تسقها الطبول، تحرك الألفي بجيشه دون أن يعلمهم إلى أين، أرسل يستدعي باقي الجيش، أدرك السنافق أنهم في طريقهم نحو دمنهور مرة أخرى، هذا الرجل العنيد لن يثنيه أحد عن رغبته في اقتحامها، وجعلها مركز لسلطته، نقطة بداية لينطلق منها نحو القاهرة بعد أن تحتل تجريدة الإنجليز الإسكندرية، سيعود مرة أخرى لألم الدنيا، ومنها سيفرض سيطرته على الوجه البحري كله في غضون شهر أو أقل.

اجتمع جيش الألفي كاملاً، أرسل عيونه ليستكشفوا الطريق، لم يبتعدوا كثيراً، وعادوا مسرعين وهم أقرب للفزع، في خيمته الخاصة وقفوا أمامه يصفون له جنود البasha، الذين تجمعوا في النجيلة، خليط من العساكر الذين كانوا في الرحمانية ومرقص وجندو الدلاة، ليسوا ببعيدين عنهم بالرغم من أنَّ كلمة الدلاة كافية لإثارة الرعب في قلب أي جيش، لكن حماس جيش الألفي كافٍ لهزيمتهم، اصطفوا للانطلاق.

وقف قائدhem أمامهم في زهوٍ يتقدّهم، مرّ بحصانه بين الصفوف،
اطمأنَّ على جاهزية رجاله، طلبوا منه الموافقة على الانطلاق، هز رأسه
نافيًا وابتسمتْه تنير وجهه، في الصباح اطلع على الهيئة الفلكية للشمس
فطالع اليوم لا يبشر بالخير فالاليوم ليس يوم سعده؛ ففي المساء سيجتمع
النوران وفي الليل سيطالع هيئة الاختيارات، ستخبره بيوت الكواكب
بالوقت المناسب لشن هجومه، ربما في الغد أو بعد الغد يبدأ معركته.

طلب استقدام حريميه وهو في انتظار وصولهن، هكذا طلب من كبار
جنوده أن يستدعوا حريمهم، أرسل في طلبهم ليؤكّد لجنوده أنه واثق
من النصر، قبل أفال الشمس بقليل، تقاطرت وفود الحريم في حراسات
خاصة، نصبّت خيمة كبيرة للمطبخ خلف خيام الجيش وخلفها خيام
الحريم، كان يوماً من العمل المضني لأحمد وزملائه من الطباخين،
إطعام جيشٍ كبيرٍ كهذا ليس بالعمل اليسير، حتى عُكرش كان يعمل
بحِدٍ على غير العادة، ينقل صواني الطعام من المطبخ لخيام الحريم
بخفة وسرعة، تتناقض تماماً مع جسمه السمين، وبطنه الكبير المدور
المتدلي أمامه، وبينس السرعة يعدّ أسمطاً للجنود، يبدو أنَّ حرارة
حماسهم أصابت الجميع.

لم يعد يهتم عُكرش بمراقبة أحمد كعادته السابقة، في البداية اعتقاد
القاتل السري أنه يراقبه ليتعلم سرّ الصنعة منه، أو ربما هو أحد عيون
الألفي في المطبخ، وينقل له الأخبار والأفعال، وما يدور في هذا المكان
المهم، ماذا لو عثر عُكرش على السم؟ بالتأكيد سيخبر سيده بذلك،

ورغم طول مراقبته له لم يتعلم شيئاً ولا حتى كيفية تقشير البصل، ولم يعطِ أي اهتمام ولو بسؤالٍ عابرٍ عن الإضافات، التي يضعها أحمد أثناء عمله، لكنه يشكل دائمًا مصدر قلق له، لا يعرف لذلک سبباً محدداً، لكن طريقة مراقبته تزعجه وتثير أعصابه.

أرخى الليل ستار الظلمة، وخرج الألفي ومعه بعض المعدات، حملها خدامه ونصبوها له بعيداً عن نيران المعسكر، نظر نحو السماء بعد أن رسم في ورقه مربعين داخل بعضهما، قسم المربع الخارجي الأكبر إلى تسعة مربعات متساوية، خط رموزاً فلكية، وعاود النظر للسماء، ودون ملاحظاته داخل مربعاته الغريبة، وصل خطوطاً مستقيمة بين الرموز ثم تأملها بعد أن انتهى، تبسم وعاد للمعسكر يسبقه الأمل.

اجتمع بقواد جيشه، وألقى أوامرًا سريعة، وكلماتٍ مقتضبةٌ، وفي دقائق انقض الاجتماع، توجه لخيمة حريمه، تناول عشاءه الدسم، وتمتع بعروض اشتاق إليها من الغناء والرقص، خلد للنوم بين أحضان نسائه، وحلم الانتصار في معركة الغد يداهم عقله، الذي انتشى بعنجر زوجاته وحريمه.

مع بزوغ شمس الصباح، امتد جيش الألفي خلفه ليسد عين الشمس، تفقد جنوده، وانتظامهم وهو على صهوة جواده، عاد إلى مقدمة جيشه ونظر خلفه في فخرٍ، ظهرٌ مستقيمٌ، وصدرٌ منفوحٌ، واستل سيفه من غمده وأخذ يخطب في جنوده، قائلاً:

- أرسل لنا جرذ تركيا جنوده يمهد طريقنا للقلعة، سنقضي عليهم ونبيدهم جميعاً، أثق في قدرتكم كما أثق في ولائكم، بعد ذلك سنحاصر دمنهور مرة أخرى، هذه المرة لن نتزحزح من حولها إلا وهي بين يدي ثمرة ناضجة شهية، ما هي إلا أيام وأحكام قبضتي على مصر، أعدكم بأن تعود إلى كنف أمرائها، هيا إلى الأمام.

تعالت دقات الطبول وتحركت صفوف الفرسان على مهلٍ في ثقة مفرطة، ارتفع الغبار تحت سبابك الخيول، راقب أحمد من فوق شجرة مغادرة الجيش داعياً الله القدير أن يباد الجيشان، ويعود إلى حارته ليزف إلى ابنة خالته في أقرب فرصة، في مقدمة الصفوف هناك حلم آخر يطفو في عقل محمد بك الألفي، سيُخلد المصريون سيرته كما فعلوا مع أول مملوك يحكم البلاد، سيحكي الحكايون حكاياته في المقاهي وفي الموالد، سينافس الظاهر بيبرس وأبوزيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، وبعد عمر طويل سيتحول ضريحة بعد أن يموت لمزار للمصريين من كل صوبٍ، تقاد من أجله الشموع، وتنذر له النذور، وتقام له الموالد والاحتفالات، وسيكون قدوة لكل من سيعتلي عرش مصر فيما بعد، وستكون معركة اليوم أول حجر حقيقي في قصر مجده التليد، هكذا حدث نفسه وهكذا تمنى.

اختفى الجيش من أمام أحمد لكنه ظهر أمام جنود أعدائه، اجتمع جيش العدو مكوناً كتلة بشرية كبيرة، على الجانب الآخر انتشر جيش الألفي على شكل قوس كبير، صعد القناصون على الأشجار العالية

ببنادقهم وذخائرهم، وما هي إلا لحظات حتى اندفع جنود الباشا نحو منتصف جيش الألفي، الذي تراجع للخلف قليلاً، تقدمت الأجناب بنفس القدر، أطبق جيش الألفي على عدوه يحصد منهم الأرواح وكأنه عقدَ معاهدَة مع ملك الموت، وتبارى القناصون من فوق غصون الأشجار العالية فيما بينهم من سيقتل أكثر، لم يمزِّ وقت طويل حتى كان النصر حليف الألفي، أحاطوا بجيش الباشا، تقربياً إحاطة كاملة، تمازجت أصوات رصاصات القناصة مع صوت نوبات الضحك الهستيري على هيئة الدلاتية وهم يجررون ويرمون بأنفسهم في النيل طلباً للنجاة، طراطيرهم تكاد تغطي صفحة النهر، وهكذا انتهت المعركة أسرع مما توقع لها الألفي.

انقسم جنود الباشك إلى قسمين اثنين، الأول: يجمع الغنائم من خيولٍ وسلاحٍ وخيامٍ وجبخاناتٍ، أما القسم الثاني: يجمع الأسرى ويصفّهم في صف واحدٍ، دارت بينهم المنافسة في التفنن في قتلهم بالطرق الأكثر إيلاماً، منهم من اقترح التوسيط، وأخرون تحمسوا للفسخ، البعض اقترح الخازوق، رفض الأستاذ كل هذا، ليس لرحمة أو شفقة ولكن لضيق الوقت؛ أمر بإطلاق النيران عليهم.

فرغ الميدان من أي جنود أحياء للباشا، وامتلاً بقتلاهم، ودون أوامر من قائدتهم قُطعت رؤوس القتلى والأسرى في سلال كبيرة لتشق طريقها إلى قبودان باشا ليشهد على قوة وغلبة الألفي.

(25)

الأوباش

تطاير خبر الهزيمة في أركان البلاد، هكذا تصل الأخبار
السيئة سريعاً على الدوام، وما هي إلا بضعة أيام، وتقاطرت
بقايا جيش البasha على القاهرة، ملابسهم العسكرية مجرد
أسمال، أسلحة مفقودة، حفاة، شعر أشعث، عيون زائفة،
وكراهة مهدورة، وهل هناك وصف مهين لهم أكثر من
أنهم فلول جيش منهزم؟!

اكتظت بولاق بأهل القاهرة، والتفوا حول فلول العساكر،
نظرات الرثاء ملح يكوي جروحهم، مصمصة الشفاة تثير
غضب المهزومين، تنفلت أعصابهم المعطوبة، يهددون
ببواقي أسلحة بالية، وأجسام طحنها الجوع والتعب،
ونفوس أرهقتها ذل الشتات، فباتوا قططاً برية جريحة،
تطارد الأهالي دون هدف، تبدلت شفقتهم عليهم لسخرية

لاذعة، تقلقهم ضحكاتهم ولمزاتهم، ألا يكفي ما ينتظرون
من البasha حتى يسخر منهم هؤلاء الرعاع؟

- «عودوا إلى بَرِّ إمبابة.»

هكذا كانت أوامر البasha، ونترك هؤلاء الملاعين دون تربية! لن يكون هذا أبداً، انصاعوا لأوامره، لكن النفوس تضمُّرُ الشَّرِّ، قسموا أنفسهم إلى ثلات مجموعات، مجموعة ذهبت إلى قناطر السبع، والثانية اتجهت نحو سويقة اللالئ، والأخيرة استقرت في الناصرية.

سند علي ابن السبع سنواتٍ رأسه إلى الحائط بعد أن أحاطها بذراعيه، وقف خلفه خمسة من جيرانه في نفس عمره ليلعبوا الغميسة، وتأكدوا أنه لا يرى، وعينيه مغلقتان، انسحبوا من خلفه في خفةٍ، وابتساماتهم تبحث عن مكان لظهور منه خلف سحب الذباب، التي تغطي وجوههم، أشاروا لبعضهم عن أماكن الاختباء الغير معهودة، قارب علي أن يصل لرقم عشرة، لكن لم يمهله القدر أن يتمتع بأن يمسك أحداً من رفاقه، رفعته يد قوية من جلبابه القصير، الذي يصل بالكاد لركبتيه، ثم قذفته في وسط الشارع، طار في الهواء وارتطم بالأرض الصلبة، شعر الصغير ولأول مرة بخشونة حياته القصيرة، عندما تحجر الهواء في رئتيه، حاول أن يتنفس، ولكنه لم يستطع، ركلة أخرى كانت كافية

بارتطامه من جديد بالحائط المقابل، حيث كان يلعب من ثوانٍ، حشرجة قصيرة وبعض قطرات الدم ثم انتهى الأمر.

ازدحمت الشوارع والدروب والعطف بالجنود، هجوم مباغت بسيط، يعادل مقدار بساطة أهل المكان، دقائق قليلة جردت أهل الشارع من بيوتهم، حولوها إلى أوكرار، أكلوا خزينتهم، خربوا أثاث بيوتهم، حرقوا أبسطتهم وأثاثهم بنيران نارجيلتهم، بيوت لم يدخلها الخمر في يومٍ وأصبحت مرتعاً للفساد وبؤراً للرذيلة، عادت خمارات خاصة بجنود فقدوا شرفهم منذ أيام في النجيلة.

اعتقد الأهالي أنّ هذا لن يستمر، طال تشردهم في الشوارع، حتى اجتمعوا ذات يوم محاولين إيجاد مخرج لأزمتهم، وقف أبو علي شهيد الغموضة يطالب بالثأر، مقترحاً هجوماً مفاجئاً على الذين احتلوا بيوتهم، وأن يذبحوا من يقع تحت أيديهم، وأن لا يكفووا عن ملاحقة من يفرّ منهم، فصوت صغيره ما زال يصرخ في وسط الشارع طوال الوقت ويؤرق منامه.

لم يجد غضب الأب المكلوم ردّ فعلٍ يناسب حزنه، ترك المسجد ورحل يلعق جراحه مسرّلاً باليأس، ما أصعب أن يكفنك الخذلان، ظهر مكسوراً، بأكتاف متهدلة ومفاصل متجمدة، وعقل شارد متيبس، الحياة الآن لم تعد

تعني شيئاً، والموت أمنية ليست صعبة المنال، مجرد سكين حادٍ، والظلام قادر على ستره، رأى أن ركن الجامع الشرقي المحصور بين حائط القبلة، والمئذنة مناسب تماماً للاختفاء، طعنات خارقة كافية بقتل من سيمرّ من هؤلاء القتلة. وفي الصباح وجدوا جثة الأب ممزقة بجوار المسجد، ذهب يؤنس وحده ابنه في البرزخ، سيقدم له اعتذاراً ممهوراً بطبعات تملأ جسداً، ورأسٌ مقطوعٌ معلقٌ على مدخل الشارع، الحق العار بأهل الحي دون قصد منه، وهم من فقدوا كرامتهم دون وعي منهم، حين فضلاوا التفاوض مع الخنازير على أن يشوروا عليهم.

توجه وفدٌ من كبار أهل الحي ليتفاوض مع الأوباش محتلي المنازل، لقاءات مكررة في كل بيت، مقابلات سمجحة تبدأ معظمها برفض دخول الوفد إلى المنزل، وتنتهي دائماً بصراخ بارد يخرج من حلوق تضخ برأحة الخمر:

«أنتم نائمون في بيوتكم كالنساء، ونحن ساهرون نحميكم، لولانا ما عشتم في أمانٍ، ألا نستحق بعضًا من الراحة؟ ألا يجب أن تضحوا بعض الشيء؟ إلى هذه الدرجة لا تقدرون تضحياتنا؟ لن نرحل من هنا سريعاً وعليكم التأقلم مع هذا الوضع، لا داعي مرة أخرى لمحاولاتكم الساذجة

للحراش بنا، لقد رأيتم نتيجة تهور ذلك المجنون، لن نحذر ولن نهدد، سئنفذه دون أي سابق إنذار، والآن اتركونا فنحن نحتاج للراحة.»

هكذا دائمًا تنتهي المقابلات بين الوفد وبين غاصبي البيوت، شتائم لا تنتهي حتى بعد مغادرتهم، وفي عدة مرات قاموا بكسر أنف أحد رجال الوفد، بعد لكمه قوية من يد جندي ثمل، لم يجد التفاوض معهم، بل منحهم فرصة أكبر لثبتت إقامتهم في البيوت، وجحة لمضايقتهم أكثر، وفرصة للحراش بنسائهم وبناتهم وجواريهم، تسأعلوا:

« هل كان والد علي على حق؟ يبدو أنهم فهموا ذلك متأخرًا، إذا الثورة هي الحل.»

الفتوّات هم أهل الخبرة والدراءة بهذا الأمر، سيقودون المعركة ضد غزاة البيوت، جمعوا رجالهم والمتطوعين من شباب ورجال الحي، قسموا أنفسهم لفرق صغيرة، هجوم مفاجئ على كل البيوت في وقت واحد كافٍ للفتك بمن في الداخل، وسيكون الثلث الثاني من الليل أفضل توقيت للبدء، التجمع دون جلبة والمباغطة والمفاجأة هما عنصرا النصر.

كل شيء مجهز، سكاكين تم شحذها عند السنانين،
عصى غليظة دقّ فيها النجارون مسامير حادة حتى فروع
الأشجار القوية والمرنة قطعوها ودببوا أطرافها، الكل مسلح
وفي انتظار سترا الليل وأوامر الفتوات.

في عصر ذاك اليوم ودون أي مقدمات غادر المحتلون
البيوت، حملوا ما تبقى من أسلحتهم بعد معركتهم الأخيرة
ورحلوا، ظنّ الأهالي بأن أحداً وشى بهم، انقسموا إلى
فريقين الأول يؤكد أنّ أخبار استعدادهم لهجوم الليلة
وصلت لمسامع الهاربين، فقرروا الفرار خوفاً على حياتهم،
الثاني لم يمانع من صحة فرضية وصول الخبر، لكن رحيلهم
 مجرد خدعة وسيعادون الهجوم مرة أخرى؛ ولهذا لن
 يتخلوا عن التيقظ والاستعداد.

عادت النساء للبيوت، كل شيء خرب، بذلن الكثير من
الجهد ليزلن كل هذه الأوساخ، التي تركها الملاعين، انشغل
الرجال في مناقشة الأمر، جلسوا في حلقات يتدارسون
كيفية الدفاع عن مناطقهم إذا ما عاد الأوغاد مرة أخرى.

أوامر مشددة من البasha هي السر وراء نزوح الجنود
ومغادرتهم، يبدو أن الأمر جلل فهزيمتهم السابقة لا
تعني أنهم قد انتهوا، ما هي إلا مجرد خسارة في معركة
واحدة والمعارك كثيرة، سيطفئون نار حقدهم بدماء

الألفي وجندوه، سيدفنونهم أحياء، وتتزين بوابات القاهرة
برؤوسهم عما قريب.

(26)

الحرقة

لم يفاجأ الألفي بالخبر، كل ما كان عليه هو أن يعيد حساباته فقط، لا أمل في هؤلاء الأمراء، يخاطبون قبودان باشا ويرسلون له الهدايا، خيول وعبيد وطواشية وسكر، يرفضون دعمه ليقودهم ويحكم باسمهم، يزاحمونه في رغبته، ويحقدون عليه، ويعترضون طريقه، ولا يعون أن كل ذلك لن يصب في مصلحتهم دون دعم الإنجليز لن يصل للحكم حتى لو وقف كل المماليك خلفه، لا داعي لاستمرار الحصار، الذي ضربه حول دمنهور إذًا، يعود أدرجه ويعاود الهجوم عندما تصل تجريدة حلفائه.

وقف أحمد يراقب عناصر الجيش وهم يصطفون في صفوف منتظمة، مقابض سيفهم البراقة تلمع تحت أشعة شمس الصباح، النشاط باد على محياهم، والثقة تعلو رؤوسهم، وكزه عكرش برفق لينبيه لوجوده، التفت نحوه ، بادره البدين بإلقاء التحية، لم يعطه

فرصة للرد، وسأله وهو يشير نحو أمير القوات:

- ألا ترى أن وجهه شاحب ويعاني كثيراً؟

- أراهم كلهم في كامل صحتهم والعافية والنشاط.

- انظر للألفي بك ودقق النظر، يبدو باهت اللون، شاحب الوجه، وعلى جسمه يظهر الوهن.

- ربما لم ينم جيداً فقط.

وصلت إلى مسامعهم دقات الطبول رتيبة بطيئة، اتبه الجنود ونفخوا صدورهم، واعتدلوا في جلساتهم فوق ظهور خيولهم، تعلالت الدقات وأسرعت، تحرك الجيش في نظام جاد، اقشعر بدن أحمد، وتبسّم عكرش في خبث وهو يتأمل قائد الجيش ينكر حصانه بمهازه الذهبي ليبدأوا مسيرة العودة نحو الجنوب.

كانت الكآبة هي رفيق البك طوال الطريق، يمتلك جيشاً أقوى من هذا اللبناني، الذي ثبته قبودان باشا على حكم المحروسة بمساعدة بعض الأراذل، الذين يسمون أنفسهم مشايخ الأزهر، يلعبون على كل الحال، ويدينون بالولاء لمن يعتلي العرش، وينعمون بالخير الوفير، ويجتمعون مع الحاكم ليدافعوا عن حقوق البسطاء، ينتهي اجتماعهم بحصولهم على مميزات أكثر أو هبات أو منح، وبعض المسكنات عن الصبر، الذي ليس له ثواب إلا الجنة، يلقونها في خطبهم من فوق منابرهم، فربما لو ناصروه لتغيّر رأيه.

الآن يساعدون هذا التركي، يجمعون له السلف من أغنياء القوم، وغداً سيجبونها من الفقراء، سيختص منهم جميعاً يوماً ما، وسيحاصر القاهرة ويقتسمها، سيوصي رجاله أن يقتلوا هؤلاء الأفاقين أينما وجدوهم، سينشأ جيل جديدٌ يدين له هو وحده بالولاء، عليه التحلية بالصبر والمثابرة وتحمل هذا الألم، الذي يقطع في أحشائه.

لم يكن القائد وحده من يعاني من الاكتئاب، فطباخه الماهر له منه نصيب، فهو بعيد عن عائلته منذ فترة طويلة، لا يعرفون عنه ولا يعرف عنهم شيئاً، اختفى عنهم واختفوا عنه، حتى أبوه لا يسمع عنه، آخر لقاء جمعهم كان وداعه لهم قبل رحلتهم المشؤومة إلى السيد البدوي، ذهب كعادته إلى عمله في مصنع من مصانع السكر، ألم يكتشف غيابهم حتى الآن؟ هل غادر مقبل الحارة، وأصبح اختفاءهم سراً لن ينكشف؟

نظر عكرش من طرفٍ خفيٍّ نحو أحمد، كان نائماً خلف وعاء طبخ نحاسي كبير، لاحظ القلق الذي يعتري زميله، نظر نحو الأفق حيث بداية الجيش، وجده بعيداً ولا يظهر منه إلا أطراف صواري الأعلام المدببة تلمع في شمس الظهيرة الحارة، اقترب من رفيقه على عربة الكارو، التي تحمل بعض أدوات الطهي، وسأله بصوتٍ هامسٍ:

- هل تعتقد أن البasha يستطيع أن يهزم هذا الجيش الجرار؟

لم يُحِبْ أَحْمَد سُؤَال هَذَا السَّمِينَ، الَّذِي يُشارِكُهُ فِي سُفَرِهِ، كَمَا يُشارِكُهُ فِي الْخِيمَةِ، الَّتِي يَنَامُ فِيهَا؛ رَبِّمَا خَافَ أَنْ يُجِيبَ، أَوْ أَنْ لَمْ يَنْتَبِهِ لِكَلَامِهِ، أَعْدَ عَكْرَشَ السُّؤَالَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتْفِ الْغَارِقِ فِي الْحَزْنِ، التَّفَتَ نَحْوَهُ مَذْعُورًا، ضَحَّكَ مَسَاعِدَهُ، وَأَعْدَ السُّؤَالَ لِلْمَرَّةِ الْثَالِثَةِ، نَظَرَ أَحْمَدَ نَحْوَ الْأَفْقِ مُحَاوِلًا أَنْ يَرَى مَقْدِمَةَ الْجَيْشِ، أَجَابَ بَعْدَ أَنْ فَشَلَ فِي رَؤْيَاةِ أَوْلَاهُ:

- لَمْ أَرَ جَيْشًا فِي مَثْلِ هَذَا الْعَدْدِ، وَالْتَّنْظِيمِ، وَالتَّسْلِيْحِ!

- لَكِنَ الْبَاشا سَيَنْتَصِرُ.

- وَهُلْ انتَصَرَ الْبَاشا مِنْ قَبْلِ؟ لَمْ يَحْدُثْ فِي كُلِّ الْمَعَارِكِ الَّتِي عَايَنَتْهَا مِنْ قَبْلِ، حَتَّى العُثْمَانِيُّونَ لَمْ يَنْتَصِرُوا عَلَيْهِ مَطْلُقًا، وَتَجْرِيدَ الْحَمِيرِ خَيْرٌ مَثَالٌ عَلَى هَذَا، إِنَّهُ الشَّيْطَانُ مَنْ يَلْهُمُهُ وَيَكْيِدُ مَعَهُ.

- الشَّيْطَانُ هُوَ الْبَاشا، وَهُوَ مَنْ سَيَنْتَصِرُ هَذِهِ الْمَرَّةِ، صَدْقَنِي.

- هَلْ هَذَا مَا تَتَمَنَّاهُ؟

- هَذَا مَا أَتَيْتَ أَنْتَ مِنْ أَجْلِهِ.

بَهِتَ مِنْ إِجَابَةِ هَذَا السَّمِينِ، الَّذِي أَخْذَ يَهْتَرِئُ مِنَ الضَّحْكِ، امْتَقَعَ وَجْهُهُ، حَتَّى هَذِهِ هِيَ نِهايَتِهِ. لَمْ يَفْكُرْ كَيْفَ كَشَفَهُ هَذَا الَّذِي تَطَلَّ مِنْ عَيْنِيهِ كُلَّ عَلَامَاتِ الْغَبَاءِ، مَا شَغَلَ تَفْكِيرَهُ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي سَيَبْتَكِرُونَهَا لِقَتْلِهِ، هَلْ الْخَازُوقُ؟ أَمْ التَّنْصِيصُ؟ وَرَبِّمَا يَجِدُونَ طَرْقًا

جديدة حتى ينهاون بها على حياته، اقترب عُكرش منه أكثر حتى التصدق به، أمسك أذنه وهمس:

- لا تقلق، عز الدين ينتظرك، لقد أتممنا العملية بنجاح وسنذهب قبل أن يلتقو بجيش الباشا.

لم يفهم في البداية، أو لم يتصور أو يعي أنه كان طوال الوقت مراقباً، لم يذر بخلده أن هذا المعتوه عين من عيون الباشا عليه! كيف خدعه وخدعهم طوال هذه المدة؟ كيف تمكن من إدعاء الغباء بهذه الطريقة المتقدمة؟ وكيف تصله الأخبار وكيف يوصلها؟ هل هو من سرق زجاجة السم، واستخدمها بدلاً منه؟ هل يعلم أنه من قتل شيروان؟ هل له علاقة بمقبل؟ هل يعلم أين أمه وأخته وخالته وحبيبه؟ عشرات من الأسئلة طافت في رأسه، انسحب عُكرش إلى مكانه خلف الوعاء الكبير، وراح في نوم عميق، أو هكذا تظاهر، على حين جلس أحمد مهموماً يبحث عن إجابات لأسئلته الكثيرة، أضناه البحث ولا إجابات، بل إن مزيداً من التساؤلات أخذت تكتظ في رأسه.

تأخرت العربية المقلة لأحمد وعُكرش، حتى أصبحت تدريجياً في آخر الصف، نظر العربي، الذي يقودها، وأشار لصاحب الكرش برأسه، سحب أحمد من يديه وقفزا، جد العربي في التقدم مرة أخرى، اختبأ الزميلان لبعض الوقت تحت ظل شجرة، أخرج السمين من بين طيات ملابسه بعض الخبز، والغموس وأخذ في

ازدراده، عرض على مرافقه أن يشاركه؛ رفض لأنّه لا يشعر بالجوع، كل ما يشعر به الآن هو مزيج من القلق والتوتر، والخوف والتوجس.

وأصل الجيش المنظم تقدمه، تعالت دقات الطبول على مشارف الجيزة، لتبت الرعب في جنود الباشا، الذين اختبأوا خائفين مكتفين بمراقبة هذا الجيش الأسطوري يمر من أمامهم، حتى الباشا فعل كما فعل جنوده، راقبه يمر وتبعده بنظارته المعظمة، حتى اختفى عن ناظريه، تهلل وجهه، واحتفل بهروب الألفي وجنوده، هكذا أشع وأراد الناس أن تفهم، وهكذا صدق أحمد، عندما وصل مع عكرش مكان الاحتفال، لكن الوحيد الذي لم يقتنع بذلك هو البدين، الذي حاول أن يفهم زميله أنّهم لم يتناوشوا، ولا يوجد قتيل واحد، ولا جريح، ومع ذلك أراد أحمد التصديق لتنتهي معاناته، ويلتئم شمل عائلته من جديد.

اعتصر الألم بطن الألفي، فلم يعد يحتمل، سأله عن اسم القرية، التي كادوا أن يدخلوها، فأخبروه أنها المحرق، سوياتٍ قليلة ويكونوا في دهشور، لم يتفاعل من اسمها، لكن الوجع شديد، ولا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة، نصبوا له خيمة صغيرة ليستريح فيها هذه الليلة، السم يجري في عروقه، يحرقها ويقطع في أمعائه بنصاله الحادة دون رحمة، العرق يتصبب منه بارداً مؤلماً يحمل رائحة الموت، ظل المنية يرمي بأطراشه على عينيه، نظر خارج الخيمة من بين رجاله، الليل حل وأحكم سيطرته على المكان،

الحسرة تشجعه على تقبل الموت بصدر رحب، بصوت متعب
أرهقته حوادث الرمن خرجت الكلمات ملوثة بدمائه:

- يا مصر انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتين متبعين
مشردين، وقد استوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرناؤود،
وصاروا يقبحون خراجك، ويحاربون أولادك، ويقاتلون أبطالك،
ويقاومون فرسانك، ويهدمون دورك، ويسكنون قصورك، ويفسقون
بولدانك، وحورك، ويطمسون بهجتك ونورك.

مسح أحد تلاميذه الدم عن فم ولحية أستاذه، شبح الموت
أحكم قبضته على الذي لم يقهر، أو يستسلم ذات يوم، استجمع ما
تبقى من قواه، وبعد يد تلميذه وعاود الكلام مرة أخرى:

- قُضي الأمر وخلصت مصر لمحمد علي، وجرى حكمه على
الممالك المصرية، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم.

أنطفأ النور في عينيه التي أرعبت من قبل العربان والأتراك
والفرنسيين، تدفق الدم من فمه وأنفه، توقف الصدر عن الصعود
والهبوط، اكتفى القلب من الحياة وامتنع عن النبض، مالت رأسه
إلى جانبه، مات الألفي.

(27)

الآخرون

”من أجاد الحيلة لم يعدم الوسيلة“ هكذا حدث محمد علي نفسه، نقص المال مشكلة تورقه، وعليه أن يُسرف في بعض نفقاته، العربان لا يستقرنون، والباب العالي لا يشبع، ومرتزقة الأرناؤود لا يكفون عن المطالبة بالرواتب والمكافآت، واستمالة المماليك مكلفة للغاية، تنقص من دخله، لو ثار العربان عليه، وغضب الباب العالي منه، وانقلب الجيش ضده، واتحد بوادي المماليك، وتأكل ظهيره الشعبي المرهق بالضرائب؛ فزوال ملكه هو النهاية الحتمية، وعليه أن يتتجنب كل هذا، ضخ الملتزمون من طلباته، ولو لا توسط الشيخ عمر النقيب وزملائه، لما وُفق في تحصيل جبايات العام المقبل بشروط اتفق عليها، صحيح أنهم معفون من الضرائب، لكنهم صدّقوا أنه في حاجة ماسة لها، فقبلوا ذلك مرغمين، هم من اختاروه وعليهم مساندته حتى النهاية.

حضر مع التجريدة الألبانية هنا على مضض، ترك زوجته وأبناءه في وطنه، دون نقود تذكر، وتحمل مشاق السفر، لم يصل لسدّة العرش بسهولة، عمل الكثير والكثير حتى يصل إلى ما هو عليه الآن، تحالف مع «البرديسي» ذات يوم، وجعله أخا له، وأحکم سيطرته عليه، حاربا «خسرو» الأعرج معاً، انتصرا عليه، وسجناه في القلعة، قاتلا خليفة «خسرو» المرسل من الباب العالي، وبالرغم من أن الأخير نجح في استمالة بعض المماليك إليه بفرمانات من السلطان، لكن محمد على والبرديسي لن يضحيا بكل معاناتهم من أجل هذا الوالي الجديد، قتلوا «علي باشا بوغول» ولم تبق هناك قوة في الإقليم تضاهي قوة الألباني والبرديسي.

يوم أن وصل الفرمان العالي بتوليه ولاية مصر عَلِمَ علم اليقين بأنّ هذا لن يطول، سيسعى البلاط السلطاني لعزله أو نقله، وهذا لا يحتاج إلى ذكاء خارق حتى يصل لهذه النتيجة، تم اختياره من قبل علماء ومشايخ الإقليم وهي سابقة لا يريد لها السلطان أن تتكرر بالتأكيد، ولكي يثبت أركان حكمه؛ عليه أن يقضي على المماليك، وهذا لن يرضي الإنجليز دون شكٍ، وإذا زاد من ضغطه على الشعب سيقف ضده المشايخ والأعيان، وهذا ما لا يتمناه مطلقاً، كل ما سبق في كفٍ، والمشايخ في كف آخر الآن، قضى على الألفي رجل إنجلترا المدلل دون عناء، عندما نجح مبعوثه في سمه، وهكذا انتهت آمال حلفائه الإنجليز ولو مؤقتاً، وهو يعرف علاج البلاط العثماني ، الكثير من الأموال والهدايا، وبالتالي يأمن مكرهم، لكن كيف يحصل عليها الآن؟

عليه أن يتفتّن في تحصيل ما يحتاجه من المال، هو يعلم جيداً أنَّ الفلاحين - هم المؤرد الأول والأكبر لخزانته - لا يجدون ما يسدّ رمقهم، والثُّجَار يعانون من حالة الكساد ومن الضرائب والجمارك، التي أثقلت كاهلهم ، عليه أن يتذكر الجديد، والجَيْل كثيرة، وهو المبدع في ذلك بشهادة كل من عامله، حتماً سيجد الطريقة، لكن على البصاصين أن يتفانوا في عملهم، وهو يعلق عليهم الآمال، فبالتأكيد هم لن يخذلوه.

طلب كبير البصاصين المثول بين يديه، تبَسَّم البasha في ثبت وهو يشير لحارسه بأن يسمح له، انحنى الرجل عندما دلف من الباب، حَكَ البasha لحيته وضيق عينيه الزرقاوين وهو يردّ سلام البصاص الأَكْبَر، وبادره بالحديث:

- هات ما عندك يا رجل.

- قبضنا على بعض التجار النصارى يا جناب البasha.

- ماذا فعلوا لتقبض عليهم؟

- رصدنا قافلة مُحمَّلة بثياب جنود خارجة من القاهرة.

- لا بد أنها كانت متوجهة لأمراء المماليك في الصعيد.

- نعم يا باشا.

- وكيف خرجت وأنا منعْتُ هذا من قبل؟

- قبضنا على الحَمَالِينَ، ومنهم عرفنا من هم أصحاب البضاعة.

- من هم؟ وأين البضاعة؟

- تجار مسيحيون قبضنا عليهم، والبضاعة محجوزة يا أفندينا،
بعد أن عدناها وسلمناها لأحد كبار الموظفين، ووقع على إيصال
 بذلك.

- عظيم، عظيم، لكن لا بد أن هناك من سَهَّلَ لهؤلاء التجار
 مهمتهم.

- نعم، هناك من سَهَّلَ لهم ذلك مقابل براطيل كثيرة.

- من هذا الملعون؟

- إنه الباشا «إبراهيم آغا» يا جناب الوالي.

وقف على قدميه، رجاله يخونونه من أجل حفنة من الدنانير،
أخذ نَقْسَا عميقاً ليسيطر على غضبه، الغضب يعمي العقول،
ويجعلها تعطل، وهو في حاجه لأن يستفيد منه الآن، تحسّسَ
سيفه وأمسك مقبضه، لو أمر بقتل هذا الإبراهيم ما لامه أحد،
لكن ماذا سيستفيد من هذا؟ عليه أن يكون أكثر حكمة، ترك
سيفه يهتزّ بجانبه، ونظر نحو بضافه، فَكَرَ لبرهة قبل أن يأمره:

- اقبضوا عليه، وضعوه مع أعتى المجرمين، لا معاملة خاصة له،
امنعوا عنه أيّة زيارة، جردوه من رتبه قبل أن ترموه في السجن،
لا يقابل أحداً أو يراسل أحداً، خاصة هؤلاء التجار الأقباط، هيئا نفذ
على وجه السرعة والدقة.

انحنى كبير البصاصين حتى خرج من الباب، حَكَ الباشا يديه
في طمع، فهكذا سُيُحصل النقود، ودون عناء أو أن يضجر أحد، بل
سيشكره الجميع على ذلك.

مهما كان الرجل ساخناً، على الصياد الماهر أن يتخلّى بالصبر
والهدوء، ما أن تقترب الفريسة من الشّرك كل ما عليه هو الثبات
والبقاء صامتاً دون حراك، هكذا نفذ محمد علي خطته ضد إبراهيم
أغا، الذي مرت عليه أيام السجن مريمة وكئيبة، خلف حوائط
السجن الباردة، وعي معنى المثل الشعبي «أن يرى النجوم في عزِّ
الظُّهر»، وحنضل الآخرون كفيل بأن يطبق هذا المثل حرفيًا، غليظ
القلب والملامح، ضخم الجثة، صدره مملوء بالعضلات البارزة،
ذراعاه لا يصلحان إلا للفتوك، كفاه وقدماه كبيرتان، كان عبُداً عند
أحد الأتراك، ارتكب جرمًا ما لا يعرفه أحد، فقطع التركي لسانه،
هرب قبل أن يتمكن من قطع طرف آخر، قبضوا عليه بعد مطاردات
طويلة وعنيفة، أودعوه السجن ليقضي بقيّة حياته هناك، بعد أن
مات سيده وعادت عائلته لبلادهم هربًا من الفرنسيين.

كل شيء فيه كبير وضخم - هكذا وصفه إبراهيم آغا - سخّره العملاق لخدمته منذ أن دخل السجن، طلباته لا تنتهي إلى أن وصل الأمر أن يطلبه ليطأه، حبك الشيطان حبكته وكل شيء مُجهز لأن يهتك عرض الباشا السابق، ولو لا تدخل حراس السجن في الوقت المناسب لفعل فعلته.

قيده الحراس وأنقذوا سجين أفندينا من براثن غاصبِه، لم يقضِ حنضل وقتاً طويلاً في استعراض فعلته أمام أعوانه في السجن لقضى وطره من فريسته، لكنه القدر منعه من الوصول لهدفه، قرار بالإفراج عن ضحيته جعله يبحث بين السجناء عن البديل.

إفراج مشروط بعد شفاعة من امرأة مقربة لنائب السلطان، ولكل شيء ثمن فدفع مصالحة كبيرة ليغفو عنه، ويخرج من السجن ويعود لمنصبه مرة أخرى، والموافقة أكيدة، ولو طلب ضعف ما يرно إليه، شبكة الصياد بها أكثر من سمكة، أطلق سراح واحد، وعلى الباقي أن يدفعوا ثمن حريرتهم، وهكذا تم الاتفاق مع التجار، سيصدر البasha بضائعهم، وهذا أمر اعتيادي، وعليهم أن يدفعوا الأموال وإلا بقوا في محبسهم إلى أن يقضي الله أمره، هكذا وببساطة كانت رسالته إليهم، دفعوا المصالحة وتنفسوا هواء الحرية، بعد أن تعلموا درساً قاسياً، لكن شهية الحاكم لم تكتفِ بعد، ولم لا وهناك فرصة أن يقتنص بعض الأموال، تهمة

صغيرة لمن حِجزت عنده البضاعة بالاحتلاس كفيلة بأن ترميه تحت يد الآخرين خلف أسوار السجن، والحل أصبح معروفاً، مبلغ مالي ضخم لخزينة الباشا الخاصة وإلا كان مصيره في يد العملاق الشبق.

(28)

الشيخ

نجوم ثمانية خشبية من أحجام مختلفة، تزين واجهة عالية من ثلاثة أدوار، متشابكة معًا بطرق معقدة، قنم عن فنان صبور، عشرات الألوف من قطع خشبية صغيرة جمعت معًا بدقة متناهية؛ لتكون مشربيات أرابيسك، تدخل الضوء والهواء العليل لغرف الدورين الثاني والثالث، وتمنع عيون المتصصين من رؤية من في الداخل، حديقة غناء واسعة متراصة الأطراف، غُلّق على أشجارها مصابيح زيتية، تشق ظلام الأزبكيَّة دون خجل.

في صالة داخلية كبيرة بالدور الأرضي، لها سقف خشبي ثُحت عليه بعض آيات القرآن الكريم، ستائر خضراء غطت نوافذ الصالة في بهاء، يصل صوت خرير النافورة الكبيرة بالخارج، متناغمًا مع صمت الليل وجلاله المكان وجماله، في صدر الصالة على كنبة عالية منجدة بحواشي حريرية، جلس الشيخ السادات بملابسه

الأزهرية وعمامته الكبيرة، ولحيته الرمادية، كملك على عرشه، يفكر ملياً في أمر غامض، لا يعرف من حوله ما هو، هل هو شيء خاص به؟ أم يخص الجمع، الذي اجتمع في داره العامرة؟

في يمين القاعة ويسارها صفت أرائك واسعة، مفروشة بسجاد صوفي ناعم، يختلف في حجمه، وألوانه عن التي بسطت على أرضية المكان، تفرق عليهم الشيخ البكري، وكبار تجار القاهرة وأعيانها، على يمين الشيخ السادات، وليس ببعيد عنه، تربع الشيخ الشرقاوي ممسكاً فنجاناً من القرفة الممزوج بالزنجبيل الساخن، يرشف منه رشفات بصوت مسموع، ويصمص شفتيه بعد كل رشفة، على يسار صاحب البيت أريكة مماثلة للتي يجلس عليها شارب القرفة؛ ثُرِكت فارغة في انتظار الشخص الأخير، الذي لم يحضر بعد.

قطع صوت الشيخ البكري الصمت، الذي لم يخل إلا من مصمصة الشيخ الشرقاوي لشفتيه:

- ثُرى ماذا سيفعل أفندينا بجرجس الجواهرجي؟

رد أحد التجار وهو يلوك قطعة من حلوى الزلايبة:

- تهمة اختلاس، سمعت أنه دفع أربعة آلاف وخمسمائة فرانك كمصالحة.

تدخل تاجر آخر، بعد أن وضع بعضًا من النشوق في أنفه،
وعطس عطسة قوية، أعاد علبة النشوق الفضية لجيبيه، وهو يشهد
من العجب:

- يا له من مبلغ ضخم!

- نعم، لم يكتفي بهذا، بل إنه فرض ضرائب كبيرة على التجار
المسيحيين.

- لا يهم، فهم معهم من الثروات ما يكفي لأن يدفعوا أضعاف
هذه الضرائب.

لم يتدخل الشيوخ في الحوار الدائر بين التجار، ظلوا ملتزمين
الصمت، وشرب القرفة، ومضغ الزلايبة وبلعها، ولكن هذا لم يمنعهم
مطلقاً من الإنصات باهتمام لكل كلمة في الحديث الدائر أمامهم،
هب الشيخ السادات واقفاً، صمت الجميع، ووقفوا ونظروا نحو
باب الصالة، واندفعوا مرحبين بوصول الشيخ عمر مكرم، بادرهم
بالسلام، فردوا عليه بصوت مرتفع، وسارعوا إلى مصافحته، أول من
صافحة هو الشيخ السادات، صاحب المكان، ثم الشيخ الشرقاوي،
وبعده الشيخ البكري، ثم كبار تجار القاهرة ووجهائها، حاول بعضهم
أن يقبل يديه، لكنه سحبها برفق وتواضع، قاده المضيف لمكانه،
وجلس بعد أن سمي الله، والبشر يملأ المكان بوصول نقيب
الأشراف.

بإشارة صغيرة من الشيخ السادات، تقدم خادم بصينية نحاسية، حملها بين يديه، عليها كوب زجاجي يتتصاعد من فوهته البخار، محملاً برائحة اليانسون الذكية، وقف أمام الشیخ عمر، وهو لا يصدق أنه يراه رؤى العین، تناول الشیخ الكوب، وربت على يد الخادم في رفقٍ، كاد أن يُغمى عليه من الفرحة، حفيد رسول الله لمسه! انسحب خارج القاعة فخوراً بالبركة، التي حلّت عليه في هذه الليلة المباركة، وهو يكاد أن يطير من فرط السعادة.

ترحيب حارّ عمّ المكان بنقيب الأشراف، الكل سعيد، أو على الأقل يُظہر ذلك، انتهى السيد عمر مكرم من كوب اليانسون، واحتفظ به في يديه، رغم حرارة اللقاء، لكن هناك برودة ما شعر بها تسري في جسده، تمسك بالكوب لعلّ حرارته تتغلب على برودة جسمه الغامضة، بادر أحد التجار وسأل آخر القادمين:

- هل أخذ أفندينا إذنكم على الضرائب الجديدة؟

تنحنح السيد عمر ليعطي نفسه وقتاً أطول في التفكير للإجابة على السؤال:

- في الواقع لم يستشر أحداً فيما فعل، لكن الأمر جدّ خطير، يحتاج أفندينا للكثير من النقود هذه الأيام.

سأل التاجر بتهكم واضح في ثنايا كلامه:

- هل هناك مشاريع جديدة يخطط لإنشائها؟

- لا، لكن هناك الكثير من الأعداء يحيطون به، ويترصّون بالبلاد.

كانت إجابة الشريف حاسمة وحادة، وإن كانت مغلفة بابتسمة تكسوها السخرية، أكمل كلامه بعد أن اختفت الحدة والسخرية من حديثه، ليحل محلهما مسحة من الغضب، وإن كانت غير واضحة:

- تذكرون يا سادة كيف ولماذا ومن اختار محمد علي باشا؟

ابتسم الشيخ السادات قبل أن يُجيب، فهو أكثر الموجودين دراية بطبع السائل، قائلاً:

- كلنا نعلم من قام بهذا يا سيد عمر.

- أريد أن أسمع يا شيخ السادات، قبل أن نتناقش فيما هو آتٍ.

- ما العائد من ذلك يا سيادة النقيب؟

- نتذكّر ونذكّر، والذكرى تنفع المؤمنين.

انفتحت شهية الموجودين للحديث عن ذكريات أيام كانت صعبة ومؤلمة وعظيمة، حَقّا إن المجد يولد من رحم المعاناة، تحمس الشيخ البكري للكلام :

- لم يكن اختياره مصادفةً، لقد كان عملاً ملحمياً، لم يشغَّل يوماً للحكم، بل على العكس هو دائم الهروب منه.

تدخل أحد كبار التجار وهو ينظر نحو نقطة مجهولة:

- وضع البرديسي في المقدمة رغم أنه الأقوى والأجدر، حقاً إنه زاهد في الحكم.

تذكر الشيخ السادات شيئاً مهماً عندما ذكر اسم الأمير البرديسي:

- لا تغفلوا دفاعه عنا عندما هاجمنا البرديسي، هل علمتم بمرضه؟

اعتدل السيد عمر مكرم في جلسته:

- يقولون إنه مصاب بالحمى الصفراء، عافانا وعافاكم الله.

أمن الشيخ السادات على دعاء السيد عمر وأكمل حديثه:

- آمين، كان موقفاً عظيماً عندما منع جنوده من العبث بمقدرات المساكين، وحربه ضد ولاة الأتراك الظالمين، هل تتذكرون ما فعل الدلهيون بالبلاد والعباد؟

تنهد الشیخ الشرقاوی:

- لا تذکرنا بهؤلاء المجانین، فسدوا وأفسدوا أمّ الدنیا، حتی
کادت أن تخرب على أيديهم.

ضحكه قصيرة سبقت رد السيد عمر:

- صدقت عندما وصفتهم بالمجانین، لكنهم شربوا المراة على
يد أولاد أمّ الدنیا.

ضحك الجميع على تعليق السيد عمر مکرم، لكنهم عادوا
للصمت عندما أکمل حديثه بجدية:

- أحب أن أضيف، نحن من اختاره، بل وألح عليه ليقبل، بالطبع
وصلتكم رسالة الأمير الألفي كما وصلتني؟

هز الجميع رأسه بالموافقة، واصل نقيب الأشراف حديثه:

- لم يكن من الممکن أن نقف بجوار هذا المستبد، إن اسمه فقط
يوجی بالهلع الشديد عند المصريين، مغرور، وطماع، ومتغطرس، ولا
يهمت بدماء المسلمين المسفوکة على يد أعوانه المجرمين...

قاطعه الشیخ الشرقاوی:

- عفواً سید عمر، ماذا يجب أن نفعل؟ ندعهم أفندينا رغم كل
هذه الضرائب، التي أحنت ظھور المصريين وكادت أن تقصمهما؟

أثارت كلمة الضرائب التفكير عند بعض ضيوف السادات، صحيح أن الشيوخ لا يدفعون أي نوع من الضرائب أو الجمارك، أو أي التزامات مالية، من التي يعاني منها الشعب، رغم ثرواتهم الطائلة، التي جمعوها من التجارة ورواتب ومكافآت، ومنح وهبات مادية وعينية، حقاً هم لا يعانون شظف العيش، الذي يعاني منه أغلبية الشعب، وبالطبع فكرة أن يشاركونه هذا الشظف غير واردة، مهما كانت الظروف، لكنهم لن يصمتوا على هذه الأعباء التي يتحملها أهل البلاد.

وقف أحد التجار متocomسما:

- يجب أن يصل لأفندينا أن الشعب لا يمكنه تحمل كل هذا العبء.

وقف بجواره تاجر آخر لا يقل حماسه عن زميله:

- نحن من يتحمل لعنة الشعب، يعتقدون بأننا نبالغ في الأسعار، رغم خسارتنا الكبيرة من عمليات السلب والنهب، إذا لم يكن قادراً على نشر هيمنته وإقرار الأمن في أنحاء البلاد، والسيطرة عليها؛ ليذهب من حيث أتى.

خرج الكلام بثقة من فم الشيخ الشرقاوي:

- تجمع الأهالي في الأزهر وهم ينتظرون نتائج هذا الاجتماع.

تحولت أنظار الجميع نحو السيد عمر مكرم، وبثقة كبيرة
خرجت الكلمات من فمه:

- نذهب لأفندينا ونطلعه على الأمر، وهو سيستجيب بكل تأكيد،
ولا تنسوا أننا وقفنا بجانبه لنثبته في حكم مصر.

هكذا قرروا زيارة محمد علي باشا، لن تكون زيارة مفاجئة له،
هو على علم تمام بما يحدث في الأزهر، وبعد أقل من ساعة من
انتهاء هذا الاجتماع سيكون عنده تقرير بكل حرف قيل فيه، عيونه
في كل مكان، والكثير يسعى للتقارب منه، يقرب من سيساعده،
ويتخلص ممن سيقف في طريقه مهما كان مركزه، ولكل واحد
طريقة للتخلص منه.

(29)

رائحة الغضب

توسّطت شمس القاهرة كبد السماء، أرسلت خناجرها الحادة، تخترق بأطرافها المدببة أجساد ضعيفة، أو هنّا الجوع، وهدّها المرض؛ فأضحت خيالات تمشي على الأرض، تجمعوا معاً علّهم يتمكّنون من محاربة الفاقة أو مواجهة الظلم.

تقدّم السيد عمر مكرم الرّكّب على صهوة جواده، بجواره الشّيخ السّادات والشّيخ الشرقاوي، وليس ببعيد عنّهم الشّيخ البكري، كبار شيوخ الأزهر وكبار التجار، وأعيان القاهرة خلفهم على بغالهم وحميرهم العالية في صفوف غير منتظمة، يتبعهم خلق كثير، تمازجت تكبيرات طلاب الأزهر، مع أهازيج أولاد البلد، مع صياح الفتوّات على رجالهم في عشوائية بالغة، كان صوتهم كهزيم البحر يعلو، ويهبط دون توقف، تقدّم الرّكب ببطء شديد حتى أوقفتهم متاريس، وقف خلفها حراس بيت

أفندينا، وقفوا مدججين بأسلحتهم، متحفزين لإشهار سيوفهم في وجه الزعماء ومن خلفهم، على سطح المنزل لمعت البنادق في يد الجنود؛ مستعدين لإطلاق النار إذا ما تخطى أحد المتأريض، أو ظهرت في الأفق أيّ محاولة للشغب، تعالت صيحات الغضب، لكنَّ إشارة من السيد عمر أُلزَمت الجميع الصمت.

تلبَّد الهواء بالقلق، حتى صار دخانًا كثيفاً يعلو الرؤوس، جفت الحلوق وزاغت العيون، تسرب العرق من تحت الملابس، ورشع فوقها، فصار بقعًا واضحة تحت إبط ملابس كالحة، لا تقي من برد الشتاء، ولا قيظ يوم مثل هذا، تاريخ نائب السلطان الدموي في موطنه شاهد عليه، ولا يعرف عنه الكثير، لكن الشعور بالخطر لا يحتاج لمعرفة تاريخ.

بهدوءٍ تحدَّث السيد عمر مع قائد الحرس، كانت إشارات يده واضحة وتترجم ما يقال، هناك موعد مضروب مسبقاً مع أفندينا، وهو في انتظار السادة والمشايخ، سيسمح لهم بالدخول لكنَّ بعد أن ينصرف الجمع، هكذا يمكن أن تفهم من إشارات وتعبيارات وجه قائد الحرس الصارمة، الذي وقف فاتحاً ما بين رجليه، قابضاً على سيفه مستعداً لقتل كل من تسُول له نفسه أن يخطئ الخط الوهمي، الذي وقف خلفه الزعماء.

استدار نقيب الأشراف، وبكلمات قليلة انسحب الركب إلى الخلف، بعد تذمر القليل من الفتوات، لكن ثقتهم في زعمائهم كافية بأن يجعلها اعترافات مكتومة، تأكد الحرس من تفرق الخلق، وسمحوا لهم بالدخول على الفور، تقدم الوفد، على رأسهم السيد النقيب، وما إن رأه البasha حتى وقف في استقباله، وعلى الفور اقتاده ليجلسه بجواره؛ تفرق المشايخ على مراتب متباينة في بهو الصالة، في لمحات سريعة من عين خبير بطبع البشر، تعرف البasha على ما يدور في رأس المشايخ، يقرب له عمر مكرم، ونحن لا شيء يذكر، هذا ما استنتاجه من نظراتهم، زاد الترحاب حفاوة بالنقيب، لتزداد العيون سعاراً.

كان البasha على دراية بما أتوا من أجله، وإن تظاهر بعكس ذلك، واكتفى بالترحاب بهم ولطفتهم، بعد فناجين القهوة تشاغل عنهم بعض الأعمال، وباعطاء أوامر لبعض الموجودين، أظهر التململ في جلسته، وكعادة النقيب أخذ بزمام المبادرة، تنهنج، التفت الجميع نحوه:

- قد لا تعلم فيما أتينا من أجله؟

هز البasha رأسه نافياً وهو يداعب لحيته في هدوء، أكمل نقيب الأشراف حدديثه:

- تعلم يا جناب البasha حال البلاد والعباد جيداً، التجار يئثون من الضرائب، التي أثقلت عاتقهم، ويعانون أشد المعاناة من نهب بضائعهم، وهي في طريقها إلى القاهرة، زاد الغلاء على الناس وقد ضجروا، وال فلاحون لا حول لهم ولا قوة تحت سياط الملتزمين، والصعيد مجبورين على حكم المماليك وبطشهم.

توقف عن العبث بلحيته وبدأ كلامه:

- ولهذا تجمعتم في ساحة الأزهر؟

بدأ الشيخ بكري حدديث بصوت منخفضٍ وارتفع تدريجياً:

- لا مكان لهم إلا هو، ولمن يشتكون إلا لنا بعد الله عز وجل؟

علق أفندينا نظره في سقف القاعة قبل أن يرد:

- تعلمون يا سادة أن الخطر محدق بنا من كل جانب، الإنجليز، المماليك، الفرنسيون، حتى الأتراك أصبحوا يمثلون خطراً علينا جميعاً.

تعجب الشيخ السادات من ذكر الأتراك في حدديث؛ فسأل مندهشاً:

- وما الخطر من الأتراك يا أفندينا، وأنتم نائب للسلطان
هنا؟ وَمُعَيْنٌ مِّنْ قِبَلِهِ؟

- هذا هو مكمن الخطورة، عليكم وعلى من قبلكم، وعلى
البلاد والعباد، هل تعتقدون أنَّ السلطان والباب العالي راضٍ
عما فعلتموه؟ بالطبع لا، سيعودون لخلعي، ويأتي والآخر
لينتقم منكم، تعرفون الامتيازات المقدمة لكم، لا ضرائب
على تجارتكم، مرتبات، هبات، ولا تنسوا أراضي (ممسموح
للمشايخ)، حتى أموال الوقف لا نحاسبكم عليها، كم مجملها؟
أو أين صرفت؟ والجديد، هل تفهمون معنى هذا؟ أتوقعون
ماذا سيفعل؟

هزت كلماته فرائص الشيوخ، فكل ما قاله صحيح، لو
تدخل أحد في هذه الأمور؛ لفقدوا جزءاً كبيراً من هيبتهم
ودخلهم، زلزلتهم كلمة الضرائب، يتاجرون في أشياء مختلفة
هم وزملاؤهم، ولا شيء عليهم، وهل حرم الدين التجارة؟
وأحلَّ الضرائب والمكوس؟

لم يهتم السيد عمر مكرم بالتهديد المغلف بالنصح من
نائب السلطان، فكل ما يهمه هو أهل المحروسة المجهدين
من غلاء الأسعار، والإتاوات التي تجمع منهم في كل مناسبة،
لم يعد مستثنى من ذلك إلا الموت، الذي لم يفرض عليه أيٌّ
جبائية حتى الآن.

رد نقيب الأشراف بسرعة:

- نعم نعرف معنى هذا جيداً، سينقلونكم من هنا إلى أي ولاية أخرى، وسيأتي نائب جديد للسلطان، والله وحده يعلم، هل سيصلاح حال البلاد على يديه، أم ستزداد سوءاً؟

- عن أي سوء تتحدث يا سيد عمر؟

- عن أحوال الفلاحين، لقد أصبحوا أقرب للرقيق، عن الملتزمين الذين دفعوا عن السنة القادمة مقدماً، عن التجار الذين تنهب تجارتهم بعد أن يدفعوا ضرائبهما وجماركها، وإذا سلمت دفعوا ضرائبهما مرة أخرى، عن الناس الذين لا يجدون كسرة خبز تقيم أودهم، لم نعد قادرين على تحمل هذا.

عقد محمد علي بين حاجبيه، اشتعلت نظراته بغضب، حاول دفنه تحت كلماته، تنفس بعمق قبل أن يتحدث:

- أشتمن رائحة الغضب في كلامك يا سيد عمر، اعقدوا المجالس، وأطلقوا التحذيرات كما تشاءون، سأصغي لها بكل اهتمامٍ، ولن تمرّ مناسبة دون أن أراضيكم، لكنني لن أسمح بأيّ مظاهره شعبية، بل وعلى أيّ تحریض على التمرد، أو إثارة للاضطراب الشعبي، أيّاً كان مصدرها، من جهة أخرى، فأنا لا أخاف مطلقاً من هذه المظاهر العابثة، فإذا ما قام الشعب بالتمرد، فلا أملك له إلا السيف والانتقام.

حديثه واضح الأن، وتهديده جليٌّ، لن يسمح لأحد مهما
كان أن يقف في وجه طموحه، حتى لو كان السلطان نفسه،
لقد وصل لعرش مصر، ولن يتخلى عنه إلا إذا تخلى كتفاه عن
رقبته، الطريق طويل والمتربيصون كثُر، والأعداء أكثر، وظهيره
الشعبي يتآكل، عليه أن يحقق نصراً بشكل ما ليستعيد ثقة
زواره، وتخضع له البلاد كما يخطط وينوي.

(30)

جاشنكير

لم يتغير شيء منذ أن غادرها منذ عامين تقريباً،
حارته القديمة، بيوتها المنخفضة، مداخلها المتواضعة،
أكواخ القمامنة في كل مكان، حشرات طنانة لا تكف عن
الطيران، أطفال شبه عراة يشاركون الأكواخ المنتشرة في
ذبابها، تحولت وجوههم لساحات قتال لذباب يتنافسون
على عيونهم دون هواة، محال بائسة، عربات يد صغيرة
يدفعها رجال تأكلوا من فعل الزمان، لا شيء استطاع
أن يفرض سيطرته على هذا المكان، مثلما فعل الفقر
والجهل والمرض.

لو قدر لهؤلاء القوم أن يأكلوا ذات مرة من طعام
الألفي لتمردوا على حياتهم، رحب به الجiran ترحيباً
حازماً، أسئلة تهطل عليه من أفواه تفوح منها رائحة

الجوع، أين كنت؟ لماذا كل هذا التأخير؟ أين أمك وأختك؟ ألا تدرى ما حدث لأبيك؟ هل قتلوه كما قتلوا مقبل؟ سمعنا أنه في المارستان، هناك من يؤكد أن حريمك بيعوا في أحد بيوت اليسرجيات، لماذا أنت صامت هكذا؟ هل أكلت القطة لسانك؟

طاردته العيون وطاردته الأسئلة، عاد للحارة ليبحث عن إجابات الغاز حيرته، وأرقته لشهور طوال، لم يشفِ المكان غليله، فرّ منهم هائماً على وجهه، يبحث عنمن فقدهم، قتلوا من سلمه لهم، لن يكون من الصعب عليهم أن يؤكدوا جنون أبيه، ولا أن يتاجروا في باقي عائلته، لماذا لا يكون قد جنّ أبوه حقاً؟ لم يتحمل أن تختفي عائلته كلّها مرة واحدة فقد عقله.

سيزور أباه عما قريب، لكن الآن عليه أن يستعد لمقابلةولي النعم، عُكرش رتب لكل شيء، سيلتقى به بعد سويعات قليلة بالقرب من القلعة، ما زال أمامه متسع من الوقت ليشتري ملابس جديدة، سيشتري الخف الأحمر الفاقع، الذي حلم طوال حياته بأن يقتنيه، نعم وتلك العباءة البنية كما تمنى أن تلمس جلدہ ولو لساعة من الزمان، سيبدو مثل الأعيان في هذه الملابس، وعدوه بمكافأة كبيرة بعد أن ينهي مهمته، وهذا هي قد

انتهت، ربما اقتطع له قطعة أرض كبيرة، سيبني هناك منزلًا ضخماً، لن يكف عن البحث عن عائلته، سيدفع ثمنهنَّ مهما كلفه الأمر، المال سيكون موجوداً، وهنَّ لا يُقدِّرنَ بمال.

لم يتعرف عليه عُكرش في البداية، هو أيضًا تعجب عندما رأه في مظهره الجديد، زالت الغباوة من عينيه، الجديّة تملأً محياه، حتى خطواته تبدل إيقاعها، تلعثم عندما أراد أن يناديه، خرج اسمه مقطوعًا «عُكرش»، ابتسامة باهتة مرت على شفتي الرجل، سرعان ما استبدل بها نظرة صارمة، وصوت معدني حاد وهو يحدّثه:

- لا وجود لعُكرش بعد الآن.

- ما اسمك إذا؟

- في عملنا الأسماء لا تهم.

- لماذا جندتموني في تلك المهمة، وكنت قادرًا على أدائها وحدك؟

ربت على كتفه بقوة قبل أن يجيب على سؤاله:

يبدو أنه على علم بكل شيء، قد يعلم أخباراً عن عائلته، سأله في حماس:

- أين عائلتي؟

- في الواقع لا علم لي بمكانهن الآن، آخر ما أعرفه عنهن أنهن كن في قصر صالح قوش بك، ماذا حدث لهن؟ لا أعرف، ربما عاقبوهن على جريمة السرقة، التي شاركن فيها جارك، ربما باعوهن في أي سوق، أو ربما ما زلن في القصر هناك كما هن، أو في قصر آخر من قصور البشوات، حان الوقت، وحذاري أن تسأل عنهن، فقط انساهم، تذكر شيئاً واحداً أنك مقبل على حياة جديدة، حياة جديدة لها قواعد مختلفة، تقبلها كما هي، ولن تندم.

- كيف كانت تصلك الأخبار وترسلها؟

- لا تهتم بمثل هذه الأشياء.

لم يفهم كثيراً من كلام العُكرش السابق، نفسه تنزف،
روحه تتمزق، عرضه مستباح من قوم خَدَّمْهم، وعرض

حياته للخطر من أجلهم، وببساطة يطلب منه أن يقبل حياته الجديدة، ويعتاد عليها، سحبه من طرف عباءته البنية ليتحرك، مشيا في صمت، قبل بوابة القلعة نظر نحوه، بصوته الحاد عاد ليقدم له آخر نصائحه:

- هذه يا صديقي أرض المؤامرات، وهي لا تفصح عن نفسها أبداً، تأتي متخفية، تطبق براثنها في صمت على الضحية حتى تزهق أنفاسها، لا تصدق، لا تهادن، لا تسامح، لا تصدق فيها أحداً، ولا تظهر تكذيبك، حتى كلمة صديق التي قلتها لك هذه لا تصدقها، لا تُقْسِسِ سررك أبداً، حاول أن تكسب مما حولك، ولا تُفْدِ أحداً مهما كان، لا تتحدث كثيراً، لا تسأل مطلقاً، أنت أعمى رغم بصرك، أبكم مع وجود لسانك، أصم ولو كبرت أذناك، خذ كلامي هذا بمحمل الجد والشك، جرب أن تخالفه، وسترى ما لا يحمد عواقبه.

انتهى من نصائحه أو تعليماته قبل أن يدخل على البasha، صمت، ترقب، توجس، خوف، لحظات ما قبل الموت، ألم يقل له حياة جديدة؟ عليه أن يدفن حياته الأولى، قبل أن يدخل في بربخ هذه الدنيا الجديدة، وأخيراًبعث، سمح لهم بالمثلول أمامولي النعم، وقدمه مرافقه المجهول المعروف سابقاً لصاحب العرش،

هزّ رأسه مستحسناً وجوده، أشار لهما بالانصراف، بعد أن سلّمه ورقة صغيرة، ففتحها بعد أن خرجا، برقٌ عيناً
أحمد وسائل في لهفة:

- لا بد أن ذلك عقد الأرض التي اقتطعها لي إسكندر
الزمان¹¹ ، أين هي بالله عليك؟

نظر بدهشة عارمة له، هل جنّ هذا الرجل؟ ألم يسمع عن بخلولي النعم؟ يبدو أنه لم يتعلم شيئاً من نصائحه، فَرَدَ يَدَهُ وَدَسَ الورقة فيها، وابتسامة سخرية تغزو وجهه همس له:

- مبروك، عينك البasha جاشنكير¹² ، وأوقف لك جامكية¹³ قدرها خمسون باراً.

جاشنكير! أي مكافأة هذه؟ وأي إسكندر ذاك؟ وأي زمان هذا؟ سيواجه الموت كل يوم مرات ومرات كلما جاء أو عطش هذا الملعون، يا له من خبيث ماكر يستحق الموت كل ساعة، أدرك الذي لا اسم له ما يدور في عقل أحمد، وضع يده على صدره، ونظر بعمق في عينيه، وهو يهمس في مودة:

11- من ألقاب السلطان.

12- متذوق مأكل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم.

13- أجر أو منحة شهرية، كانت تُعطى من غلة الوقف.

- انغمِس في حيَاتك، ولا تراقبها أو تتأملها، هي ستقودك حيث تشاء، تمتَع بها وكفى، ولا تبحث عن وطن فالأوطان مغربية، بهية، تسهل سرقتها واحتلالها، عِشْ في منفى؛ فالمُنافي لا يعرُف قيمتها سوى المنبوذين والمركونين على زوايا الحيَاة الباردة، لنا لقاء آخر، ستتجدُنِي بجانبك عندما تحتاجني.

أغلق يديه على أمر تعينه، وربت عليها، وابتسمته الودودة ما زالت على شفتِيه، أشار له بيده إلى طريق المطبخ، وسار لا يلتفت خلفه حتى اختفى عن ناظريه.

الفور ريد

(31)

نيران الرغبة

جلس صاحب الستة والثلاثين ربيعاً منتفخ الأوداج سعيداً بما وصل إليه، اليوم يضع قدمه على أول الطريق الصحيح، الذي حلم به طوال حياته البائسة، فسعادة أيامها تُعد على أصابع اليد الواحدة، أهمها على الإطلاق هو اليوم، توهם ذات يوم أنه امتلك العالم يوم زفافه على أمينة هانم.

ذهب إلى حجرتها فوجدها في انتظاره، تزينت كأميرة، ولم لا وقد أصبح زوجها والتي مصر دون منافس، هبت عند دخوله وانحنى أمامه في حركة مسرحية، تقدم نحوها، وأمسك بيديها، ولثمتها بقبلة حارة، تلك اليد التي طالما وهبت له الكثير من ثروتها، اليوم شعرت بأن موافقتها على الزواج منه قرارٌ موقٌّ .

ساعدته ليتحفف من ملابسه، وجلست بجواره، نظر في عينيها اللوزيتين وتبسم، تبسمت هي الأخرى واحتضنت يديه، وقربتها من فمهما

الكريزي، شعر بدفعه أنفاسها، وهي تطبع قبلة حارة في باطن يده، ضمّها إلى صدره، وتذكّر يوم أن رشحه لها «إسماعيل الشورجي» وكيف ترددت في قبول تلك الزيجة! ولها كل الحق في التردد، نظر نحوها بعد أن وضع يده حول خصرها وسألها في تودّدٍ:

- ألا زلتِ تشعرين بالنندم على زواجكِ مني؟

حاولت أن تخلص من ذراعيه، اللتان أحاطتا وسطها، لكنهما فشلتا في ذلك، فرددت عليه في رقةٍ مبالغة:

- من أخبرك أنني ندمت ذات يوم على الارتباط بك؟

- سيدة في جمالك، وغناك توافق على الزواج من بائع تبغ، ألا يدعو هذا للعجب؟

- عندما يرشحك لي حاكم البلاد؛ فلا يمكن أن أرفض.

تنهد والي مصر عندما تذكّر مواقف الشورجي إسماعيل، هذا الرجل الذي احتضنه بعد وفاة عمه «طوسون» ولم يبق له من عائلته إلا هو؛ ليتكلّل به بعد أن أصبح لطيمًا في سن الرابعة عشر، قشت الدنيا كثيراً عليه، ولكنها تبشره اليوم بأنّ صفحة البؤس قد طويت من حياته،وها هو في انتظار مجلدات من السعادة.

خفف حصاره عن خصرها، فارتمت في أحضانه، وهي تخلل يدها الناعمة في لحيته، تبسم لذلك فهو يحبّ منها مثل تلك المداعبات، ولا

يسمح لأحد أبداً غيرها من الاقتراب من لحيته، مزّرت يدها على شفتيه،
وسأله في خبيث ودلالٍ:

- لو كنت بقيت نائباً لكتيبة الألبان؛ هل كنت ستصل لما وصلت
إليه؟

عض أناملها برفق، فانتزعتها من بين أسنانه، وهو يحبها:

- هل تعلمين أن أكثر ما يثير حنقـي هو كلمة نائب؟ حتى لو كنت نائباً
للسلطـان، يومـاً ما ستكون مصر خالصة لي ولأولادـنا من بعـدي، لكن حتمـاً
وبالتـأكيد كنت سأصل إلى مرادي.

- كيف؟

- الأمر لا يحتاج أن أكون فقط قائداً لجنودـ، لكنه يحتاج لهـذـين.

وأشار إلى رأسـه ولسانـه.

- يبدو أنـك تعلمـت الكـثيرـ.

- بالطبع عـلـمـتـني الدنيا دروسـاً، أولـها: ستـقـسـوـ عليناـ الحياةـ، لا لـشيـءـ،
وإنـما لـتنـقـيـنـا وـتـعـدـنـا لـما هـوـ مـقـبـلـ منـ أمـورـ، فـكـلـما ضـيـقـتـ عـلـيـنـاـ الخـناقـ
هـنـاكـ ثـغـرـةـ لـاـ يـرـاهـاـ أـحـدـ سـوـىـ مـنـ اـسـتـيقـظـ ذـهـنـهـ، وـعـلـتـ هـمـتـهـ، تـعـلـمـتـ أـنـ
الـحـيـاةـ لـنـ تـتـوـقـفـ إـذـاـ مـاتـ الـأـعـزـاءـ، لـكـنـهاـ سـتـتـوـقـفـ عـنـدـمـاـ نـسـلـمـ أـنـفـسـنـاـ
لـلـيـأـسـ أـوـ لـلـهـوـانـ، فـإـنـ كـانـتـ الـمـنـيـةـ قـدـ وـافـتـ أـشـقـائـيـ وـشـقـيقـاتـيـ السـتـةـ

عشر، وتوفي والدي وبعده أبي، ثم عمي الذي أوانى، لكن الحياة لم تتوقف في بيت الشوربجي إسماعيل، فصديق العم قد يفعل ما لا يستطيع والد نفسه أن يفعله.

تنهدت أمينة هانم ونظرت في عيني زوجها العميقتين، انحدرت يدها برقة محاولة مسح ذكريات حزينة لا يستطيع مخلوق أن يزيلها من عقله، قبّلته بين عينيه قبل أن تردد عليه:

- بالتأكيد قدم لك الكثير، ساندك عندما انضمت لسلك الجنديه، ولم يكتفي بذلك لكنه عينك نائباً لابنه على الكتبة الألبانية، التي أنت لمصر مع الجيش العثماني؛ لتسليم الولاية العثمانية من يد الفرساويين.

تماسك نفسه، ثم ابتسم بمكرٍ:

- لم يكن اختياره لي مجاملة.

- بالطبع لم تكن مجاملة، فلولا شجاعتكم، وإقدامكم لما أقدم على ذلك.

- يسعدني علمكم بذلك.

- لم تكن فقط شجاعتكم هي كل مؤهلاتكم، لا تنكر مساعدتي لكم في ذلك.

ضحك محاولاً تغيير دفة الحديث، فوكزته بخفية في صدره، وهي تتظاهر بالغضب:

- أتسخر مني؟

- لا بالعكس لكنك تنكري ذكائي.

لم تستطع أمينة هانم أن تغفل ملحوظته، فهو وبشهادة كل من تعامل معه متقد الذكاء، ذكاء يخيف من يقترب منه، ذكاء يتتحول أحياناً إلى خبيث، ومرات لدهاء، أكثر من مرة جنَّب كتيبته الاعتداء على المصريين، كما كانت تفعل باقي الكتايب العثمانية، أغضب هذا الوالي، ولكنه كسب رضا ومحبة شيخ الأزهر، كم من مرة أبدت اعترافها على عدم إطاعته لأوامر الوالي في المراسلات بينهما، لكنه كان محقاً، هو الآن والي مصر وملكتها، بينما باقي منافسيه إما أموات أو في طي النسيان، لا يذكرهم أحد.

اقربت منه أكثر وألصقت صدرها الغض بذراعه، شعر بطرافة جسدها الأبيض المرمري، فدنا منها أكثر محاولاً إشعال جذوة رغبته، لكنها ابتعدت عنه قليلاً، وهي تداعب شفتي السفل بسبابتها، وأرددت في دلال:

- الآن أنا ملكة مصر، أليس كذلك يا مهجة الروح؟

- لا حبيبتي، أنت ملكة قلبي وسلطانة على عرشه فقط .

ظهر عليها الضيق، فابتعدت عنه، وراحت لطرف السرير، لمح تلك النظرة، التي يعرفها جيداً عندما تضيق ما بين حاجبيها، تشعر وقتها

بأن السماء ستقلي بجام غضبها على من غضبت عليه صاحبة الحاجبين المقروني، ضحك من كل قلبه وهو يحاول جذبها نحوه، وهي تقاومه، فاعتدل في جلساته وأمسك يديها برفق، وتبسم في وجهها محاولاً وأد غضبها في مهده:

- عزيزتي، لم أمتلك مصر بعد.

رددت عليه في عصبية:

- كيف ذلك وأنت الآن ملوكها، وأنت باشا بثلاثة ذيول؟!

- قد تتصورين أنني الحاكم، لكنني أعرف أن خارج هذه الغرفة تنتظرني المصاعب، هل تعتقدين أن حكمي هنا سيطول؟

- ولم لا؟

اقرب منها أكثر، ووضع ذراعه فوق كتفها، وضمها لصدره، وهو يجيب سؤالها:

- أنت واهمة يا زوجتي الحبيبة، قريئاً سيخلعني السلطان مرة أخرى من منصبي هذا، لم أصل إلى هذا عن طريقه، بالتأكيد أغضبه ذلك، حاول إزاحتني عن حكم مصر، وتمكنت من كسب هذه الجولة أيضاً، هل ترضى الحاشية حوله بما حدث؟

- وماذا عن ابني الذي هناك؟

- سيعود، ولكل شيء ثمن.

- يا ويلي، وماذا أنت فاعل؟

مسح على شعرها مطمئناً:

- سيعود قريباً، تجريدة لبلاد الحجاز هي ثمن عودة ابننا.

- ومتي ستذهب هذه التجربة؟

- الأمر يحتاج إلى ترتيب، الألبان لا يريدون الخروج للحرب، ويتركون
أمراء المماليك هنا، وأنا أؤيدهم في ذلك ربما استضعفوني في موقف مثل
هذا وانتزعوا الحكم مني، وأغاروا على بيوت الألبان ونهبواها.

- ليذهب الأماء مع التجربة.

- لا آمن وجودهم هناك أيضاً، إنهم أولاد حرام، ربما كانوا السبب
الرئيس لفشل المهمة.

- ما الحل إذا؟

حاول أن يبث الثقة في نفسها دون أن يعطيها ردًا شافياً:

- لكل وقت أذان كما يقول أهل مصر، دعينا من ذلك الآن، لا تظنين
أننا يجب أن نحتفل بليلتنا هذه؟

- نحتفل! وماذا عن باقي مشاكلك؟

- من تقصدين؟

- هؤلاء الذين يشاركونك الحكم.

- نعم، فهمتك، هؤلاء المعمّمين، لا تقلقي يا عزيزتي كلهم سينطونون تحت جناحي، وإلا عليهم تحمل ما سيحدث لهم.

تعجبت من كلامه، هم من أتوا به للحكم، وهي على يقين بأنهم قادرون على سحب البساط من تحت قدميه، نظرت في عينيه متسائلة، فِهِمْ قصدُهَا؛ اعتدل في جلسته، وهو ينظر نحو سقف الغرفة محاولاً إخفاء نوایاه، تنهَّد وانتظر قليلاً، ثم عاود حديثه:

- لا تعتقدني يا عزيزتي أنهم ملائكة، هم مجرد فقاعات بشر، لهم طلبات ورغبات، وعليهم التزامات، يعيشون في ترفٍ، ولن يتحملوا شفاف العيش، لكل شيء ثمن ومقابل، إن أرادوا البقاء في عزّهم؛ عليهم إطاعتي، وإن رغبوا في الاستمرار بالتمتع بمضاجعة محظيهم وغلمانهم؛ عليهم إظهار الولاء والطاعة، وإن أبوا؛ فليتحملوا قسوة الحياة، التي يعاني منها الشعب الذين ينتمون إليه.

- وماذا عن أمراء المماليك؟ هم حجر العثرة لعوده وليدي؟

أثار ذِكر المماليك قلقاً حقيقياً في نفسه، نعم تخلص من كبارهم تقربياً، ودون مجهد يذكر، مات البرديسي بمرضه، ومن ورائه الألفي،

لـكـنـهـ لاـ يـأـمـنـ بـوـاقـيـهـمـ،ـ عـادـ مـرـةـ أـخـرـىـ لـلـنـظـرـ لـسـقـفـ الـغـرـفـةـ،ـ نـظـرـتـ هـيـ
الـأـخـرـىـ نـحـوـهـ،ـ لـتـرـىـ إـلـىـ مـاـ يـنـظـرـ زـوـجـهـاـ،ـ التـفـتـ إـلـيـهـاـ ثـمـ تـنـهـدـ وـمـالـ فـمـهـ
ناـحـيـةـ الـيـمـينـ قـلـيـلـاـ،ـ قـبـلـ أـنـ يـبـوحـ بـسـرـهـ:

- لا حل إلا التخلص منهم بصورة نهائية، نطاردهم في الصعيد،
ومن سيطلب الصلح منهم؛ لا مانع على أن يقيموا هنا تحت عيني في
المحروسة، لن أسمح بتجزئه مصر بيني وبينهم، لكن في يوم ما، لا بد من
القضاء عليهم قضاء مبرراً بصورة أو بأخرى.

داعب خصلة من شعرها، اقترب منها أكثر، همس في أذنها:

- قـرـيبـاـ سـتـسـمـعـيـنـ وـتـرـيـنـ مـاـ يـسـرـ خـاطـرـكـ.
ضـمـمـهـاـ إـلـىـ صـدـرـهـ،ـ وـقـبـلـ وـجـنـتـيـهـاـ،ـ قـامـتـ فـيـ خـفـةـ،ـ وـأـطـفـأـتـ المـصـبـاحـ،ـ
وـعـادـتـ لـلـسـرـيرـ مـسـرـعـةـ،ـ سـبـحاـ مـعـاـ فـيـ بـحـيـرـةـ مـنـ الـعـشـقـ الدـافـيـ،ـ دـقـائقـ
وـابـتـلـعـهـمـاـ بـحـرـ مـنـ نـيـرانـ الرـغـبةـ.

25 فبراير 2016

30 يونيو 2018

”تمت“